د/ أحمد محمد حسّان

السِّيَاسَةُ

بين الإسلاميّين والليبراليّين

دار الفكر العربي

السياسة
بين الإسلاميين والليبراليين

تأليف

د/ أحمد محمد محمد حسان
أستاذ القانون المحاضر بالجامعات
والمحامي بالنقض والدستورية والإدارية العليا
والداعية الإسلامي

تقديم

أ.د/ أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء
ورئيس جامعة الأزهر الأسبق

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤- فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
info@darelfikrelarabi.com

٢١٤،٣٢ أحمد محمد حسان.

أ ح س ى السياسة بين الإسلاميين والليبراليين/ تأليف أحمد محمد حسان؛ تقديم أحمد عمر هاشم.- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٣٤ هـ = ٢٠١٣ م.

١١٢ص؛ ٢٤ سم.

ببليوجرافية: ص ١٠٩

تدمك: ٩-٢٨٨١-١٠-٩٧٧-٩٧٨.

١- الإسلام والسياسة. ٢- ماهية الإيمان بالله وحقيقته. ٣-التوحيد والسياسة. ٤- منظومة الدين والأخلاق. ٥-المنظومة الإسلامية عند الإسلاميين ثلاثية وعند الليبراليين ثنائية. أ-العنوان.

جمع إلكترونى وطباعة





إهداء

إلى والدي... رحمه الله

إلى والدتي... أدام الله عليها الصحة والعافية

إلى زوجتي وأبنائي "رانيا وداليا ونورا وعمر"

زهرات حياتي وفلذات كبدي

تقديم

بقلم أ.د أحمد عمر هاشم

عضو هيئة كبار العلماء
ورئيس جامعة الأزهر الأسبق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: **فهذا الكتاب يحمل عنوان:**

(السياسة بين الإسلاميين والليبراليين)

وقد دفع المؤلف إلى كتابة هذه الصفحات ما شاهده من دعوات تريد فصل الدين عن الحياة، فأراد تصحيح هذا المفهوم الخاطئ ليوضح أن الدين مرتبط بالحياة وموجه لها إلى ما فيه مصلحة العباد والبلاد.

فالإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة، وأخلاق ومعاملات ومن يتصفح كتاب الله يجد أنه تبيان لكل شيء وأنه يهدي الناس إلى الحياة السليمة، والمعيشة المستقيمة، وإلى أقوم السبل، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء] وقد نظم الإسلام شئون الحياة الدينية والدنيوية، فإلى جانب توجيهات الإسلام في أمور العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، اشتمل توجيهاته كذلك على نظم الحكم والإدارة في الإسلام وعلى البيع والشراء والزواج والميراث والحرب والسلام، ونظام الحسبة في الإسلام إلى غير ذلك... ولم يدع الإسلام شأنًا من شئون الحياة السياسية أو الاقتصادية أو غير ذلك إلا كان التوجيه الرباني، والهدى النبوي يشتمل على ما فيه الهدى والرشاد، كما قال رسول الله ﷺ: **(تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي)**

مقدمة

إن الحمد لله على نعمة الإيمان به، وشرف الإسلام له، وكفى بها نعمة. وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يكن له كفوًا أحد. وإذا كان العبد المحدود لا قبل له بوصف المعبود غير المحدود، فإني لا أملك (وأنا العبد القليل الصغير الضئيل) أن أصف الكبير المتعال سبحانه وسع كل شيء رحمة، وعلمًا، له ما في السماوات، وما في الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى. الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

فإن الذي هو شيء مما وسعه علمك ورحمتك لا طاقة له بوصفك سبحانك، أنت كما وصفت نفسك. قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص].

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه من خيرة خلقه وحبيبه، أذن الخير التي استمعت واستقبلت آخر إرسال السماء لهدي الأرض، ولسان الصدق الذي بلغ عن الحق هداية الخلق.

وبعد،

فإني استعنت بالله تعالى على إخراج هذا الكتاب إلى المسلم القارئ الذي اخترت له هذا العنوان «**السياسة بين الإسلاميين والليبراليين**»، والذي دفعني إلى إصدار هذا الكتاب، هو ما لاحظته بأن اعتقادًا غير صحيح آمن به كثير من المسلمين، بأن هذا الدين لا صلة له بحركة الحياة، وأن مكانه الوحيد في المساجد، أما خارج المساجد فليس له مكان على خريطة الحياة والشأن العام.

ويود الكاتب أن يلفت نظر القارئ إلى أن مصطلح «الليبراليين» في نظر المؤلف هم مسلمون شرح الله صدورهم للإسلام عقيدة وعبادة فقط، أما عن كون الإسلام سياسة فلا يزالون يجدون في أنفسهم حرجاً. أسال الله أن يتم نعمته عليهم بأن يرزقهم نعمة الفهم الصحيح لهذا الدين.

ظهر هذا الاعتقاد بوضوح، وأنا أتابع المشهد السياسي بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ المباركة خلفًا للمشهد السياسي السابق الذي أطاحت به الثورة، وقوضت أركانه. فقد

ظهر هذا المعتقد واضحًا في نظر التيارات الليبرالية والعلمانية واليسارية عبر وسائل الإعلام المختلفة. ولما كان هذا المعتقد الذي استبد بفكر هؤلاء يختلف كثيرًا عن معتقد التيارات الإسلامية التي اتخذت من الإسلام مرجعية لها، وعولت عليه (بشكل رئيس) في النظام السياسي. وقد ظهر هذا الاعتقاد واضحًا ليس عند النخبة من أصحاب الرؤى غير الإسلامية فحسب بل تأثر بهم كثير من الكتلة الصامتة غير ذات الاهتمام بالشأن العام.

ولما كان أولئك الذين اعتنقوا هذا الفكر قد ظلموا أنفسهم، كما ظلموا غيرهم فحرم الجميع نعمة السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة جزاءً وفاقًا على تلك النظرة القاصرة.

ولما كان هذا الاختلاف الفكري بين هذين التيارين الإسلامي وغير الإسلامي يرتب آثارًا واسعة المدى على مستوى الحركة والسلوك.

ولما كان ذلك والشريعة الإسلامية تحكم حركة الحياة على الأرض فقد وجدت من واجبي أن أصدر كتابًا يصحح هذه المفاهيم، ويكشف عن حقيقة هذا الدين، ومدى ارتباطه بالحياة. والله أسأل أن يوفقني إلى هذه المهمة التي لا أبغي من ورائها سوى مرضاة الله. ولعلي بذلك أكون قد صوبت سهمًا من أجل تقويض هذا الحصار الذي فرضه هذا التيار الفلسفي الحر حول هذا الدين الذي جاء رحمة للعالمين من لدن حكيم عليم.

وبإذن الله سوف يكون تصحيح هذه المفاهيم من خلال هذه الدروس التي نعرض كلاً منها في صورة مباحث على النحو التالي:

- ماهية الإيمان بالله وحقيقته.
- الإسلام هو طريق الهداية الأوحد وغيره الضلال.
- نطاق منهج الهداية.
- التوحيد والسياسة.
- الإيمان بالله منهج حياة.
- الإيمان بالغيب.
- منظومية الدين والأخلاق.
- ثلاثية المنظومة الإسلامية عند الإسلاميين وثنائيتها عند الليبراليين.

المبحث الأول
ماهية الإيمان بالله وحقيقته

الصلة بين الإسلام والإيمان:

إذا سلمنا بأن الإيمان محله القلب، وأن الإسلام محله الجوارح. فإن الإيمان بالله هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فلا يكفي المؤمن الحقيقي أن يستقر الإيمان في قلبه دون عمل يشهد على هذا الإيمان. وكذلك شأن المسلم الحق يجب أن يكون عمل الجوارح مصدقًا لما آمن به القلب وصدى لهذا الإيمان فيه.

وبذلك يصبح نفلا القول بأن الإيمان الحقيقي، هو نفسه الإسلام الحقيقي. فكلاهما قوامه إيمان القلب وتصديق العمل لما وقر في القلب من إيمان. كل ما في الأمر أن الإسلام الحق إذا أردنا أن نعرفه بدأنا بعمل الجوارح أولاً، وقلنا إنه يتمثل في أعمال الجوارح الخمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. وأن تكون هذه الأعمال صادرة عن قلب يؤمن بها، فالقلب المؤمن بالله هو أميرها – أي أمير هذه الجوارح وآمرها. وأن الإيمان الحق إذا أردنا تعريفه بدأنا بعمل القلب أولاً، وقلنا إنه أي الإيمان يتمثل في إيمان القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. وأن يصدق عمل الجوارح هذا الإيمان القلبي.

وكما هو واضح فإن الإيمان عندما نتعرف عليه فإن دور القلب يبرز في التعريف أولاً، ثم يأتي دور الجوارح. وعند التعرف على الإسلام فإن عمل الجوارح يظهر أولاً في التعريف ثم يثنى بعمل القلب. المهم أننا لا نكون أمام إيمان حقيقي أو إسلام حقيقي إلا بوجود عمل للقلب وللجوارح معًا وكلاهما اتخذ من مرضاة الله قبلته. وبذلك لا أكون مبالغًا إذا قلت: إن الإيمان إذا وقر في القلب ولم يصدقه العمل كنا أمام فاسق وكذلك الإسلام فلا أكون مبالغًا إذا قلت إن إسلامًا بالجوارح فقط دون قلب يؤمن بما تفعله الجارحة كنا أمام منافق.

ومن هنا يتأكد ما سبق بيانه من أن الإسلام الحق هو الإيمان الحق فكل منهما يقوم على نفس الدعامتين اللتين يقوم عليها الآخر [1].

وإذا انتهينا إلى أن الإيمان الحقيقي هو توأم الإسلام الحقيقي وكلاهما يصدر عن مشكاة واحدة ويحمل نفس المعنى ولو اختلفا لغة. فما هي حقيقة الإيمان وماهيته؟

ما هي حقيقة الإيمان وماهيته؟

لا يجد واجد بيانًا لهذه الحقيقة أعظم من كتاب الله يجليها، ويؤصلها، ويعمقها بتطبيقات عليها، في قوله تعالى من سورة البقرة بيانًا لهذه الحقيقة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

والطاغوت من الطغيان. والطغيان من فعل طغى وتجاوز الحدود. وله وجهان: أحدهما الأمر والنهي والتوجيه بما لم يأذن به الله. والذي يفعل ذلك يكون قد نازع الله في صفة من صفاته التي تفرَّد بها سبحانه دون خلقه، فإذا وجد في أية أمة، وفي أي زمن من يعبد من دون الله فهذا طاغوت هذه الأمة. وثانيهما هو الحكم بما ليس له في شريعة الله سند. ولما كانت هذه الأحكام التي ليس لها سند من شرع الله غير منضبطة بأي حدود فهي بذلك تصبح شكلاً من أشكال الطغيان.

وبذلك يلتقي الوجهان عند معنى واحد للطغيان وهو تجاوز الأمر لحدود الشرع قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النازعات].

وقد كان اليهود يزكون أنفسهم ويتباهون بأنهم أبناء الله وأحباؤه وفي نفس الوقت يتبعون الشرك والباطل. كما كان المنافقون يتفقون من شياطينهم من اليهود على التظاهر بالإسلام وفي نفس الوقت يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وهم مأمورون بالكفر به. قال تعالى في سورة النساء منددًا بفعل المنافقين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

---

(١) يراجع في التفصيلات كتاب المؤلف (الإيمان والإسلام) جاري العمل فيه وأسأل الله أن يخرج إلى النور قريبًا.

فالطاغوت إذن عُملة واحدة لها وجهان: أحدهما ادعاء خاصية من خصائص الله سبحانه التي استأثر بها دون خلقه كالألوهية والربوبية والقوامة والتشريع، والآخر عدم ضبط حركة الحياة بميزان الله. يقول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

بذلك تتجلى معالم الطاغوت وملامحه في كل أمر أو نهي أو توجيه لم يأذن به الله وما ليس له سند في شريعته سبحانه. ولذلك فقد أقسم الله بذاته العليا بنفي صفة الإيمان عن أولئك الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت. قال تعالى في سورة النساء: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

ولا يكفي أن يكون هذا التسليم عن إكراه وكراهية، ولكن يجب لثبوت صفة الإيمان أن يكون هذا التسليم عن حب ورضا، ذلك أن هؤلاء يريدون الاحتكام إلى شريعة لم يأذن بها الله وليس لها سند في شريعته قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى].

وخلاصة القول إنه لا محل للحديث عن الإيمان الحقيقي دون تقديم الكفر بالطاغوت، فالمؤمن الحقيقي هو الذي يقدم الكفر بالطاغوت أولاً قبل الإيمان بالله وأن هذا الكفر بالطاغوت هو العربون الذي يقدمه المؤمن لجدية السير على طريق الإيمان الحق: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة].

ودليل ذلك فقد نُعت المنافقون بالكفر لإيمانهم بالطاغوت وإرادة الاحتكام إليه وعدم الكفر به ولا يقدح في ذلك زعمهم بأنهم مؤمنون.

لزوم الكفر بالطاغوت والأسوة الحسنة في إبراهيم عليه السلام:

وجوب الكفر بالطاغوت الذي أفصحت عنه الآيات في سورة البقرة، وسورة النساء حسبما تقدم يجد جذوره الأولى في الزمن البعيد، وفي تجربة رائدة رائعة عريقة، وأسوة ممتدة

في عمق الزمان. فهو ليس بدعًا من القول. وما جاء به القرآن المنزل على رسول الله ﷺ متجذر في تاريخ هذه الأمة التي تستمد قوتها من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، والتي تقوم على ملته عليه السلام، وتسير على نهجه، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾.

تلك الملة (ملة إبراهيم عليه السلام) التي هي مقياس الحق، ومثال الهدى والرشاد لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾. وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

هذه الشجرة عميقة الجذور وارفة الظلال التي أنتم فرع منها غرسها أول الموحدين أبوكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو سماكم المسلمين من قبل. فالكفر بهذا الطاغوت يجد أصوله في هذه الأسوة الحسنة، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾.

تخاطب آيات القرآن أولئك الذين دخلوا في دين الإسلام، وتقول لمن أعلن دخوله في هذا الدين يلزم أن تكون ولايته لله وحده لا شريك له ولن تخلص وجهتك لله وحده إلا بتمام التجرد له سبحانه، والتطهر من رجس الجاهلية، والكفر بالطاغوت، والتبرؤ من كل صوره وأشكاله.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ... ﴿٤﴾ ﴾.

ولا يزال خطاب هذه الآيات للمسلمين الذين دخلوا في الإسلام ولم يتطهروا بعد من كل رواسب الجاهلية، ولا يزالون يوادون من حاد الله ورسوله من آبائهم وإخوانهم وذوي قرابتهم الذين لا يزالون على الكفر. هؤلاء المخاطبون يجدون في استغفار إبراهيم لأبيه وهو

مشرك منفذ وثغرة لتبرير ميل عاطفتهم إلى ذوي قرباهم من المشركين ومشاعرهم الموصولة بهم. فجاءت الآيات لتبين حقيقة الأمر، وهو أن إبراهيم عندما وعد أباه بأن يستغفر له كان ذلك عندما وعده أبوه بأن يدخل في دينه؛ ولكن لما تبين لإبراهيم عليه السلام أن أباه أخلف الوعد وبقي على الشرك تبرأ منه قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

نخلص من ذلك أن الكفر بالطاغوت أمر حتمي لكل مؤمن حقيقي يريد الله واليوم الآخر، وأن هذا الإيمان الحقيقي لا يمكن أن يبلغه المؤمن الحق إلا إذا تطهر من كل أمور الجاهلية، وأنسابها، وأوشاجها، وعراها، وتجرد لله وحده لا شريك له؛ قال تعالى في سورة هود: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

فليس أدل من ذلك على أن الإيمان بالله الحق لا يكون ولن يكون إلا بالكفر بجميع الروابط والعلاقات والوشائج والصلات مهما كانت قوتها حتى ولو صلة تقوم على الأبوة والبنوة، كل ذلك يجب الكفر به والبراءة منه والولاء لله وحده سبحانه وتعالى جل في علاه. فقد نفت الآيات صلة نوح بابنه وأنه ليس من أهله (رغم صلة الدم هذه) لأن مقياس الإيمان الصحيح وأهلية الإيمان الحق هي النسب إلى الدين وليس النسب الناشئ عن القرابة: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود].

الكفر بالطاغوت هو مدخل الإيمان الصحيح:

قدمنا ما يقوم به الدليل الذي لا يدع مجالاً لريب على أن الإيمان الذي هو مراد الله من المؤمنين يلزمه التبرؤ من الطاغوت في جميع صوره وأشكاله والولاء لله وحده أي الكفر بكل أمر أو نهي أو توجيه لم يأذن به الله مقرونًا بالإيمان بكل أمر أو نهي أو توجيه من عند الله، ذلك أن الله لا يقبل أن يكون له شركاء يدعون من دونه. كما لا يقبل أن يكون له أنداد يحبونهم كحب الله فهو سبحانه الكبير المتعال والمهيمن والمتفرد بالألوهية والمستأثر بالطاعة دون سواه. ولا تكون الولاية إلا لله الحق وله الملك، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

فاعلم أخي المسلم أنك إن لم تكن ولايتك لله وإن لم تكن تسير على منهج الله – وقد وضح وضوح النهار كيف يكون هذا المنهج وما هو؟ فأنت على غير طريق الله فانتبه من غفلتك وانهض من نومك، فإن البحر عميق، والسفر طويل، والعقبة كؤود. واعلم أنك لم تذق طعم الإيمان الصحيح ولن تذوقه إلا بتخلية قلبك من رجس الشيطان والكفر بكل ألوان الطاغوت وأطيافه، والتبرؤ من هوى النفس. وقتئذٍ سوف تتذوق حلاوة الإيمان وتسير على منهج الله بثقة واطمئنان.

العروة الوثقى والإيمان القوي:

وكما هو واضح فإن الآية تقيم رابطة بين الإيمان القوي والعروة الوثقى.

والعروة الوثقى لها مدلولان: مدلول حسي، ومدلول شعوري، معنوي غير حسي. وبالطبع فإن المراد هو المعنى الشعوري وقد عبرت الآية عن المعنى الشعوري غير الحسي بشكل حسي ملموس لأن إيمان الإنسان بالمحسوسات يتفوق على إيمانه بالغيبيات غير المحسوسات. والعروة في معناها الحسي هي الطرف الأخير في الحبل إذا ربط على هيئة حلقة يمسك بها من ينزل في بئر ويصعد منه. فلو أن شخصًا نزل بئرًا بهدف الصعود بالماء، وكانت وسيلته في الصعود هذا الحبل، فلو كان لهذا الحبل عروة أمسك بها، وأعانته على الصعود، والوصول إلى بر الأمان، ولا سيما إذا كانت العروة الوثقى شديدة الربط والإحكام. ولو لم تكن هذه العروة فلا شك في أن يكون معرضًا لخطر السقوط في البئر.

وقد قصدت الآية من التعبير عن المعنى الشعوري باللفظ الحسي (العروة الوثقى) لبيان معنى النجاة في الدنيا والآخرة، والنجاة من المعيشة الضنك في الدنيا والإحساس بطعم الإيمان وحلاوته فيها والفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة.

وطالما كانت العروة وثقى فلا انفصام لها ولا يهلك من تعلق بها، بل فاز ونجا، وكتب الهلاك والضياع على كل من لم يستمسك بها والله تعالى أعلم.

المعنى الحقيقي للمسلم في نظر الإسلام:

مرت بنا آيات بينات بلورت مقومات الشخصية الإسلامية، وأرست قواعد هذه الشخصية ورسمت معالمها. وقد أبانت هذه الآيات عن المعنى الحقيقي للشخصية الإيمانية، وأصبح المسلم الحق في نظر جميع المسلمين وغير المسلمين هو الذي يكفر بكل

نظام أو أمر أو نهي أو توجيه لم يأذن به الله، وليس له في شريعة الله سند، وأن يؤمن بكل نظام أو أمر أو نهي أو توجيه طالما كان مأذونًا فيه من الله أو له في الشريعة سند.

ومما لا شك فيه أن الإيمان بكل ما جاء من عند الله بعد الكفر بكل ما جاء من عند غيره إيمان يبلغ منتهاه في القوة كمن استمسك بالعروة الوثقى التي من تعلق بها نجا ومن لم يمسك بها هلك. فمن أراد أن يبلغ درجة الإيمان الحقيقي، وإن يبلغ مقام الأمن والأمان، وأن يتحصن بحصن النجاة فلا يخاف إذا خاف الناس، ولا يحزن إذا حزن الناس، وينال رضوان الله، ولا يخش سخطه، فأمامه طريق واحد، وليس من طريق سواه، ألا وهو الولاية لله الحق. ولن تكون الولاية لله حقًا، إلا بالبراء من غيره، والإيمان به وحده. فمن كان على هذا الطريق فهو على طريق الحق، ومن لم يكن على هذا الطريق فهو على طريق الباطل والضلال. وهذا ما تنطق به آيات بينات لا لبس فيها ولا جدال.

المبحث الثاني

الإسلام هو طريق الهداية الأوحد، ودونه الضلال

هذا الدرس متمم للدرس السابق «ماهية الإيمان بالله وحقيقته» ومعمق له ويزداد المؤمن به إيمانًا. وسوف نقدم هذا الدرس بنفس الأسلوب الذي قدمنا به الدرس الذي قبله.

المقصود بطريق الهداية:

يقصد بطريق الهداية، ذلك الطريق الذي شرعه الخالق سبحانه وتعالى لخلقه الذين لم يخلقهم إلا لعبادته وحده لا شريك له، والذي أبان عنه في شريعته التي أنزلها على خير خلقه محمد ﷺ، قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فهذه الشريعة هي التي بينها الله في كتابه، وفي سنة نبيه ﷺ وما اشتملت عليه من امتثال أوامر، واجتناب نواهي تتعلق بكافة مجالات العبادة والمعاملات والأخلاق. وكل ذلك في إطار من الإيمان بوحدانية الخالق سبحانه المنزه عن الشريك، وهو أغنى الأغنياء عن الشركاء.

وهذه الأوامر والنواهي الجامعة لكل حركة الحياة تعبدية كانت، أو معاملاتية مصدرها ما أوحي به لرسول الله ﷺ قرآنا كان، أم سنة على نحو ما ورد في القرآن ذكره في سورة الشورى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾.

فطريق الهداية إذن يتجسد في إقامة الدين الذي لا يقوم إلا بإقامة شريعة الله وتقواه في كل ما أوصى به سبحانه وأوحى به إلى رسوله ﷺ؛ قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾.

فالذي استقام على هذا الطريق فقد هُدي إلى صراط مستقيم، ومن لم يستقم عليه فقد ضل السبيل، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

ويقول سبحانه في سورة الأحقاف على لسان الجن عندما استمعوا إلى القرآن يتلى عليهم من النبي ﷺ: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

حصر وقصر الهداية على هدى الله:

طريق الهداية الذي يتجسد في إقامة شريعة الله في كافة مجالات الحياة ليس له بديل، وليس له شريك، لأنه ليس له مثيل، لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

فسياق الآية يكشف بوضوح وصراحة عن قصر الهدى فيما هدى الله إليه، بدليل أن الآية جعلت الهوى في مقابلة الهدى. وعاقبت من ينحرف عن الهدى إلى الهوى بأشد ما يكون العقاب. وهل هناك عقاب أشد من أن يتخلى الخالق عن نصرة المخلوق؟ ﴿ ...مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾. ثم تأتي آية أخرى بينة، وفي نفس السورة لتؤكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾. وتلك هي مرة أخرى تؤكد فيها هذه الآية المعنى الذي سبق بيانه، وهو معاقبة صاحب الهوى. وما أشد أن يعاقب الإنسان بأن يكون من الظالمين!

الطريق إذن واضح والخط مستقيم، إما النور الذي جاء من عند الله، وإما الهوى في كل ما عداه. وليس للمسلم أن يتلقى إلا من عند الله، وليس له أن يدع العلم المستقيم إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

هذا المعنى الذي تقدم لا تصرح به هاتان الآيتان فقط، بل هناك آيات كثيرة وكلها بينات منتشرة في كل الكتاب تؤكد هذا المعنى الذي تصفه في شكل قاعدة إيمانية من قواعد الإيمان الصحيح.

وهكذا قد حصحص الحق، وتمحض الأمر. فإما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون. وليس هناك من فرض ثالث، ولا من طريق وسط بين الشريعة المستقيمة، والأهواء المتقلبة. إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء مصدرها الجهل . نعم ليس هناك من فرض ثالث، فهما خياران فقط. إما أن يكون إلهك الله جل في علاه، وإما أن يكون إلهك هواك. فمن لم يتخذ الله إلهًا فقد أضله الله على علم منه سبحانه باستحقاقه هذه الضلالة وزاد على ذلك فختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

يقول تعالى في سورة الجاثية : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٣﴾ ﴾.

انظر إلى قوله تعالى مشيرًا إلى أن الطريق إلى الله أحد طريقين لا ثالث لهما. ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ الآية من سورة الفتح، وقوله تعالى: ﴿ ...وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ... ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح].

تشريع الهداية كل لا يتجزأ، ولا تفريط في أي جزء منه مهما صغر:

الذين يتبعون الشهوات سواء كانوا من المسلمين، أو المنافقين، أو غيرهم من أهل الكتاب، أو من الذين لا يعلمون لا تفتأ محاولاتهم مع ذلك الفريق الذي هدى الله من أجل أن يردوهم عن دينهم ما استطاعوا، أو على الأقل يزحزحوهم عن طريق الحق ولو قليلاً، وقد ورد في غير موضع من الكتاب ما يؤكد هذا المعنى، وتلك المحاولات الجادة في رد الذين هداهم الله عن طريقه. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... ﴿١٠٩﴾ ﴾ الآية من سورة البقرة. وقوله في سورة آل عمران : ﴿ وَدَّت

﴿طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وقوله في سورة آل عمران ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾. ومن أمثلة هذه الآيات البينات الدالات على هذا المعنى ما لا يقع تحت الحصر في الكتاب إنها حملة الذين استمرؤوا الشهوات وفعل المنكرات في مواجهة الذين هدوا إلى طريق الله المستقيم، حتى يميل أهل هذا الطريق عنه ميلاً عظيمًا ﴿...وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ الآية من سورة النساء. إن هؤلاء الذين يتبعون الشهوات لا يزالون يحاولون كل المحاولات من أجل أن يميل المؤمنون عن طريقهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. فإن عجزوا عن ردهم عن إيمانهم، فلا تزال محاولاتهم من أجل زحزحتهم عنه ولو قليلاً. ولأن هدى الله هو الهدى، وما عداه ضلال وهوى. ولأن طريق الله هو الحق والرشد، وما عداه باطل وغواية ولأن هدى الله كل لا يتجزأ. لما كان ذلك فقد وجب على أهل هذا الطريق أن يثبتوا عليه كله ولا ينحرفوا عنه قيد أنملة، ولا يتهاونوا في أي شيء منه مهما كان صغيرًا.

يقول تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾. لقد حاول الذين لا يعلمون في إطار حملتهم على الحق الذي هو من عند الله – فتنة النبي ﷺ مما أوحي إليه ليفتري على الله غير الذي أوحي إليه، لقد حاولوا هذه المحاولات في صور شتى. منها مساومتهم له أن يعبدوا إلهه في مقابل عدم تسفيه آلهتهم، والتنديد بما كان عليه آباؤهم. ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حرامًا كالبيت العتيق الذي حرمه الله. ومنها طلب بعض كبرائهم أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس الفقراء. والنص يشير على هذه المحاولات من غير تفصيل ليذكر فضل الله على رسوله في ثبوته على الحق، وعصمته من الفتنة. ولو تخلى عنه ربه سبحانه في ثباته على الحق وعصمته، لركن ﷺ إليهم وقتئذٍ يتخذون منه صديقًا، ولقي عاقبة ذلك عذابًا مضاعفًا في الحياة، وبعد الممات. وحسبه عذابًا شديدًا أن يتخلى ربه عن نصرته.

هذه المحاولات وتلك الأكمنة التي رصدها الذين لا يعلمون في مواجهة رسوله ﷺ والتي عصمه منها، والتي لم يركن إليها تمثل محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا في كل زمان، محاولات من أجل إغرائهم لانحرافهم – ولو قليلاً – عن استقامة الدعوة وصلابتها. وإرضائهم بالحلول الوسط في مقابل مغانم كثيرة. وهناك من حملة الدعوة من يفتتن بهذا عن دعوته، لأنه يرى أن الأمر هين (يحسبه صاحب الدعوة هينًا وهو عند الله عظيم)، ذلك أن أصحاب السلطان لا يطلبون منه ترك دعوته كلية، بل يطلبون تعديلات بسيطة حتى يلتقي الطرفان عند منتصف الطريق. وقد يتسلل الشيطان إلى حامل الدعوة في هذه الثغرة التي يحسبها هينة فيتصور أنه خير للدعوى كسب أصحاب السلطان، ولو بالتنازل عن جزء منها. ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهايته. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها – ولو يسير – أو يغفل طرفًا منها – ولو ضئيل – لا يملك أن يقف عندما سلَّم به أول مرة، ذلك أن استعداده للتسليم يتزايد ، كلما رجع خطوة إلى الوراء.

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة في كل جوانبها، ليس في جانب منها فاضل ومفضول. وليس منها ضروري ونافلة. ولو كان فيها ما يمكن الاستغناء عنه لما دخل فيها بداءة، لأنها منزهة عن اللغو نزاهتها عن الهوى. فهي كل متكامل يفقد كل خصائصه عندما يفقد أحد جوانبه.

وأصحاب الرئاسة والسلطة لا ينفكون، يستدرجون أصحاب الرسالات والدعوات فإذا سلموا جزئيًا فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن المساومة المستمرة وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها.

وتلك هزيمة روحية تلحق بصاحب الدعوة أن يضحي الأخير بجزء من دعوته لكسب صاحب السلطة. وتتجسد الهزيمة هنا في اعتماد صاحب الدعوى على صاحب السلطان في نصرة دعوته. فالله وحده هو المستعان. وهو الذي يعتمد عليه وحده لا شريك له في نصرة شريعته. وإذا دبت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصرًا.

وعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول ﷺ إلى هذه الفتنة فإذا هم يستفزونه من الأرض، وهي مكة، ليخرجوه منها. ولكن الله أوحى إلى نبيه أن يخرج هو منها

مهاجرًا. ذلك أنه ﷺ لو لم يخرج منها مهاجرًا وأخرجه منها المشركون عنوة وقسرًا لحقت عليهم سنة الأولين وحل بهم الهلاك ﴿ ...وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الإسراء]. فهذه سنة الله النافذة ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء].

ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتغير، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب القاطع لدابر المكذبين. هذه سنن ثوابت لا تتحول أمام اعتبارات فردية، ولا مصادفات عابرة. إنما هي السنة الثابتة المطردة. فلما لم يرد الله أخذ قريش بعذاب الإبادة كما أخذ المكذبين من قبل لحكمة علوية فلم يرسل الرسول بالخوارق، ولم يقدِّر أن تخرجه قريش عنوة وقسرًا بل أوحي إليه بالهجرة لكي تمضي سنة الأولين في طريقها دون أن تتحول أو تتبدل.

فعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها وكلها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء منها إلى شيء من الهوى، فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله شيئًا ولو اتخذ بعضهم لبعض ظهيرًا ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الآية من سورة الجاثية.

نعم لا يغني أصحاب الدعوات شيئًا عن ربهم إذا هم تنازلوا عن جزء (ولو طفيف) من دعوتهم لهؤلاء المتسلطين، وهؤلاء لا يملكون شيئًا ولا يغني عنهم شيء مما كسبوا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء.

طريق الهداية إذن بكل جوانبه وبكليته لا فرق فيه بين ما يعتبر في نظرنا صغيرًا أو كبيرًا، حقيرًا أو عظيمًا هو وقف على الطريق المستقيم. وليعلم من لم ثبت على هذا الطريق كله في العام والخاص وفي الدنيا وفي الآخرة، أنه في ضلال مبين فليفق من سكرته، ولينهض من غفلته قبل أن يدركه الموت. ووقتها لا يجديه ندم ولا يستعتب. ولننهض معًا الآن إلى أحد تطبيقات هذا المنهج الذي هو نسيج وحده.

من تطبيقات هذا المنهج الذي هو نسيج وحده:

إن طريق الهداية الذي أرشد الله إليه له فلسفته الخاصة، وتصميمه الخاص. فهو ليس كمثله طريق. ولا عجب لأنه من عند من ليس كمثله شيء. والمتأمل فيه يتملكه الشعور

بأنه لا يمكن أن يكون من صنع بشر له أهواء، بل هو من صنع إله يستعلي على الأهواء. فهو نسيج وحده وفي هذا يكمن سر هذه الصناعة البديعة الخلاقة الفائقة العملاقة التي لا يمكن أن تطاولها صنعة الإنسان مهما أوتي من معطيات الزمان. وفضل هذه الصناعة على صناعة الإنسان كفضل الله على خلقه.

وفيما يلي سوف نضرب مثلاً لهذه الصناعة في إحدى جزئيات هذا المنهج الغالب على أمره ولو كره الحاسدون. وهذا المثال لا يمثل إلا جزءًا من كل الهدي الذي هدى الله إليه، ولا يمثل إلا سطرًا من قمطر هذا الرشد الذي أرشد الله إليه. وما هو إلا غيض من فيض من طريق الهداية الذي جعله الله رحمة للعالمين.

والمثال الذي سوف نقدم له هو قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

هذه الآيات نزلت بمناسبة قصة لا تعرف لها البشرية نظيرًا. ويتعذر تصورها في الأرض إذا حكمت بمناهج الأرض ولا يمكن تصورها (أي تلك القصة) إلا في إطار منهج السماء المستعلي على الأهواء. ذلك أن البشر مهما استقامت طبائعهم وصفت أرواحهم، لا يمكن لهم أن يرتفعوا إلى هذا المستوى الذي تشير إليه الآيات إلا بوحي من الله. هذا المستوى الذي يرسم خطًا في الآفاق لم تتطاول إليه البشرية إلا في ظل هذا النهج القيم.

لقد نزلت هذه الآيات لكي تنصف رجلاً يهوديًا في الوقت الذي كان فيه اليهود في المدينة يطلقون سهامهم المسمومة على الإسلام والمسلمين، ويطلقون الإشاعات، وينشرون الأكاذيب ويؤلبون المشركين، ويحفزون المنافقين، ويضللون العقول، ويطعنون في الرسالة والرسول، ولا ينفكون، يحاولون تفتيت الصف المسلم، لتفسيخ هذا المجتمع داخليًا ويؤلبون عليه خصومه لمهاجمته خارجيًا.

والإسلام وليد المدينة، ورواسب الجاهلية لا تزال لها آثارها في نفوس المسلمين، وصلات القرابة والمصلحة بين بعض المسلمين، وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم تمثل خطرًا حقيقيًا على تماسك الصف المسلم. (راجع ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، ج٢، ص٧٥١).

في هذا الوقت الذي فيه المشهد السياسي للإسلام يعاني من قوى سياسية وقوى حزبية أخرى تناهضه وتقف في طريقه للإجهاز على هذا الدين الجديد في مهده. في هذا الوقت تنزلت هذه الآيات من أجل تبرئة يهودي اتهم بسرقة ظلمًا وعدوانًا، ولإدانة من تآمر عليه. وهم من الأنصار. والأنصار في هذا الوقت هم أهم القوى السياسية الفاعلة وهم عدة الرسول ﷺ وجنده في مواجهة هذه القوى المعادية لرسالته.

والقصة التي نزلت هذه الآيات بمناسبتها مفادها أن نفرًا من الأنصار – قتادة ابن النعمان وعمه رفاعة – كانوا مع الرسول ﷺ في غزوة فسرقت درع رفاعة فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار يدعى طعمة بن أبي أبيرق فأتى صاحب الدرع الرسول ﷺ وأبلغه خبر طعمة. وفي رواية أنه بشير بن أبيرق وفي هذه الرواية أن بشيرًا كان منافقًا يقول شعرًا في ذم الصحابة، وينسبه إلى بعض العرب – فعمد السارق إلى بيت رجل يهودي يدعى زيد بن السمين، وألقى الدرع فيه، وقال لبعض أقاربه إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان. وقالوا يا رسول الله إن صاحبنا بريء، وأن الذي سرق الدرع فلان فأعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك هلك. وقد فعل الرسول ﷺ ما طلبوه منه، قام ﷺ وعذره على رؤوس الناس.

قيم الإسلام هي القيم التي تنشد الحق المبين دون عوج مهما كانت الملابسات:

هذه الآيات برأت مظلومًا من غير المسلمين. وأدانت ظالمًا من المسلمين، وشددت عليه النكير. لقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد عليه أو التنديد به، وكشفه هكذا أمام العالمين على هذا النحو العنيف المكشوف، كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تحكم وتتحكم، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي المرجعية في هذا المنهج! فلو كان الاحتكام والحكم بمقاييس البشر أنفسهم لكان هناك سبب عريض وهو سبب سياسي تبرره الظروف والملابسات، وهو أن

هذا المتهم من اليهود التي لا تدع سهمًا مسمومًا إلا أطلقته في حربها مع الإسلام وأهله، اليهود التي لا تعرف حقًا ولا عدلاً، ولا أية قيمة من قيم الأخلاق في صلتها بالمسلمين على الإطلاق. وكذلك كان هناك سبب آخر وهو سياسي، وهو أحوج ما تكون إليه الدولة الإسلامية التي هي في طور البناء آنذاك. وهو أن المتهم الحقيقي الذي نزلت الآيات لفضح أمره من الأنصار الذين آووا ونصروا. كما كان هناك سبب ثالث تمليه الاعتبارات السياسية والملابسات الآنية وقتها وهو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلى الأنصار. وهم لا يدعون هذه الفرصة تمر دون التشهير بمعسكر الإسلام.

كل هذا كان ممكنًا وكان مطروحًا لو أن القيادة السياسية تحتكم إلى مناهج البشر الوضعية، لو أنها حرة طليقة من كل قيد، ولكن منهج الله عندما يكون هو المرجعية لهذه القوى الحاكمة فإن الأمر يختلف. الأمر في نظر الإسلام أكبر من كل هذا، أكبر من هذه الاعتبارات الصغيرة، فالأمر أمر تربية هذه الجماعة الجديدة لتنهض بدورها في خلافة الأرض وقيادة البشر. وهي لا تنهض بهذا الدور في الخلافة ولا القيادة إلا بمنهج فريد متفوق (نسيج وحده) فضله على سائر المناهج البشرية كفضل الله على خلقه. إنه منهج يليق بالدور الكبير المعقود على هذه الجماعة الإسلامية والأمانة الكبرى التي أودعها الله إياه. لابد إذن من تمحيص هذه الجماعة تمحيصًا ينزع عنها كل ضعف وهوى ويطهرها تطهيرًا من كل راسبة من رواسب الجاهلية حتى تتمكن من إقامة ميزان العدل بين الناس مجردًا من جميع اعتبارات الأرض. إن هذا المنهج ليعلي ويعظم من شأن الشفافية التي هي المقياس الذي توزن به الأنظمة الليبرالية في القرن الواحد والعشرين، فأكبر الأنظمة الديمقراطية شفافية هي التي تحوز قصب السبق ويجعلها تتفاخر على الأمم الديمقراطية قاطبة بفضل هذه الشفافية. وأقولها بكل قوة وبلاغة – بعد عرض هذا المثال المصغر لهذا الأنموذج الإسلامي القويم – إذا كان الديمقراطيون الليبراليون أو العلمانيون أو اليساريون وغيرهم من القوى السياسية غير الإسلامية يستبقون إلى ميزان العدل والشفافية فأين عدلهم وشفافيتهم من منهج اصطنعه العدل لنفسه؟ ليتفرد به على مناهج خلقه. إنه منهج الخالق الذي يعجز الخلق أن يأتوا مثله. منهج العدل الخالص الذي لا يحتمل الدهان ولا التمويه ولا يقبل إلا هذا الجد الذي هو أمر هذا المنهج الإلهي الذي لا يمكن أن يرتفع إليه الناس – ولا يعرفه الناس إلا بوحي من الله وعون منه وتوفيق. وأقول مخاطبًا الليبراليين على

مختلف انتماءاتهم وأطيافهم الذين يستكثرون على هذا الدين قدرته على مواجهة المستجدات والمتغيرات ويرمونه بأن الأخذ بمرجعيته يعد من قبيل التراجع إلى الوراء. إلى هؤلاء أقول لهم: لابد أنكم إما تجهلون حقيقة هذا المنهج الرباني، وإما أنكم تعرفونه ولكنكم اختلفتم فيه بعد ما جاءكم العلم حسدًا. يقول تعالى في سورة الجاثية ﴿ ...فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ... ﴿١٧﴾ ﴾ أي حسدًا وبغضاء.

فإذا كان إعراضكم عن هذا المنهج بسبب عدم العلم فقد علمتم، وعرض عليكم نموذج من هذا المنهج الفريد. وإن كان الإعراض بغيًا، فإن هذه الآيات لا تزيدكم إلا نفورًا وإعراضًا، ولا يجدي هذا الإعراض نفعًا في النيل من هذا المنهج الذي يجد حراسًا له من أولئك الذين اتخذوا من شريعة الله مرجعية يحتكمون إليها في كافة شئونهم ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الآيتان من سورة الجاثية. وأقول للذين يلتمسون الهدى خارج هذا المنهج: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾[محمد].

المبحث الثالث

نطاق منهج الهداية

أشرنا سلفًا إلى حقيقة منهج الهداية الصادر عن الله عز وجل في علاه، وقلنا إن هذا المنهج تجسده مواثيق الإيجاب ومواثيق السلب (افعل كذا ولا تفعل كذا) التي لها سند من شريعة الله، والتي يلزم الإيمان بها، والتبرؤ من غيرها، حتى يتحقق المعنى الكامل للإيمان الذي لا يتبعض بأي حال.

فلا محل للقول عن الإيمان الكامل، الذي هو مراد الله منا، إلا باجتماع هذين الشرطين (براءة إلى الله ورسوله من كل ما جاء من عند غير الله، والولاية لله في كل ما جاء من عنده سبحانه) فمن لم يتخذ الله وليًا فقد اتخذ من دونه أولياء ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام].

وهنا يقفز السؤال عن مكونات هذا المنهج. وهل ينتظم كل أمور الحياة، عبادة ومعاملة؟ هذا ما سوف يجيب عليه هذا المبحث.

الإطار الذي يدور هذا المنهج في فلكه

لا شك أن الذي يحدد إطار هذا المنهج، هو التصور الصحيح لقضية الإيمان بالله، وذلك أن الإطار الذي يدشن مكونات هذا المنهج يتحدد وفق هذا التصور. وقد سبق القول فيه بأنه يقوم على إيمان بالله يستقر في القلب ويصدقه العمل. والإيمان القلبي الذي يجب أن يعمر به القلب مقتضاه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، تلك هي مفردات الإيمان القلبي الذي لا يمكن الحديث عنه إلا بالإيمان بها جميعًا واطمئنان القلب إليها.

فكل هذه المفردات ركن فيه، ولا يقوم الشيء إلا بقيام ركنه، ذلك أن الركن ما كان داخلاً في ماهية الشيء ولا يقوم الشيء إلا به. فإذا تحقق هذا الإيمان القلبي على هذا النحو فقد اكتمل الركن الركين الأول في القضية، وأصبح الطريق ممهدًا إلى الركن الآخر في هذه القضية والذي لا يقوم الإيمان الحق إلا به، ألا وهو تصديق العمل لهذا الإيمان الذي وقر

في القلب فمن هذين الركنين تتشكل ملامح الشخصية الإيمانية على النحو الذي يحقق مراد الله منها. ومن هذا التصور، وهذه القاعدة ننطلق نحو تطبيقات هذا التصور ثنائي الأبعاد في كتاب الله.

وتطبيقات هذا التصور الإيماني السليم حظها من الوفرة في الكتاب والسنة كثير يتمرد على الحصر ولكننا سنكتفي بنموذجين فقط من هذه التطبيقات هما:

١ - التطبيق الأول (الارتباط البين بين الإيمان والعمل في الكتاب).

٢- التطبيق الثاني (سورة الحجرات).

التطبيق الأول (الارتباط البين بين الإيمان والعمل في كتاب الله)

كل من قرأ كتاب الله، أو حفظه، أو استمع إلى آياته يلاحظ أنه لا توجد آية واحدة من مجموع آياته التي تبشر برحمة الله، أو جنته أو تَعِدُ بذلك إلا باجتماع هذين الشرطين، الإيمان والعمل الصالح. فإذا تأملنا هذا الكتاب كله من أول سورة الفاتحة حتى سورة الناس لا نجد آية واحدة تعد بالنعيم أو تبشر بجنة الرضوان، إلا وقد اشترطت لذلك شرطا الإيمان، والعمل الصالح. فليس هناك من آية واحدة في هذا الكتاب كله تعد من آمن فقط بالجنة دون أن يعمل صالحًا. وتَعِدُ من يعمل صالحًا بالجنة من غير إيمان فلابد منهما معًا: الإيمان، العمل الصالح للوصول إلى هذا الجزاء والنعيم من رب العالمين.

والسياق يأتي في صور متنوعة، ولكن لا يختلف على هذا المعنى، فساعة تجد الآيات تبشر بالجنات للذين آمنوا وعملوا الصالحات والأمثلة على ذلك تفوق الحصر في الكتاب نجتزئ منها:

- قوله تعالى من سورة البقرة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا...(٢٥)﴾.

- قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾.

- قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

- قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾.

- قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

- وقوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

- وقوله تعالى من سورة الزخرف: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

- وقوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

- وقوله تعالى من سورة يونس: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾.

- وقوله تعالى من سورة محمد: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وفي نفس السورة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ ... ﴿١٢﴾ ﴾.

- الآية من سورة سبأ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

- الآية من سورة الطلاق: ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾.

وهذا هو السياق الغالب الإيمان بالله أولاً، ثم العمل الصالح ثانيًا، كشرطين رئيسين لاستحقاق الأجر والثواب.

وساعة ترى السياق يبدأ بالعمل الصالح أولاً، ثم يأتي بالإيمان ثانيًا.

من أمثلة ذلك:

- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ من سورة النساء.

- وقوله تعالى من سورة النساء: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾.

- وقوله من سورة البقرة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

فلا يكفي الإيمان وحده، ولا يكفي العمل الصالح وحده، لاستحقاق الأجر من الله، بل يلزم وجودهما معًا.

وساعة تجد العقاب أثرًا للأعمال الصالحة ظاهريًا وغير الصالحة حقيقة لكونها لم تصدر عن الإيمان بالله.

ومن أمثلة ذلك:

- قوله تعالى من سورة إبراهيم: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.

المقصود بالأعمال هنا الأعمال الطيبة في ظاهرها على خلاف الحقيقة كان مآلها من جنس نية أصحابها.

- قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

تطبيقات هذا المعنى في السنة النبوية الشريفة:

وإذا كان هذا هو شأن القرآن في توكيده على أن الإيمان والعمل الصالح شرطان لابد منهما معًا لضمان الحصول على ثمرة هذا الإيمان، وهي الجنة والرضوان. فإن السنة النبوية الشريفة باعتبارها اللائحة التنفيذية لهذا القرآن ما كان لها إلا مواكبة هذا المنهج والسير على هداه. ومن تطبيقات ذلك في السنة أنها أفردت لحسن النية مساحة كبيرة وعولت عليها، أي النية في قبول العمل أورده على صاحبه مهما كانت الأعمال كبيرة فلا اعتبار لها، ولا محل لقبولها، إلا إذا اقترنت هذه الأعمال بالنية الحسنة. فيلزم أن تكون هذه الأعمال تصديقًا للإيمان بالله الذي وقر بالقلب حتى يستحق صاحبها الثواب والأجر.

الأعمال بالنيات

انظر إلى قول النبي ﷺ «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» حديث سيدنا عمر رواه الخمسة.

انظر إلى النية في هذا الحديث، وكيف اعتبرها مقياسًا لتصحيح الأعمال. وقد ورد في مجال النية وارتباطها بالأجر على العمل أحاديث نبوية وقدسية كثيرة لا يتسع الأمر لعرضها. المهم أن هذه الأحاديث جميعًا تتجمع حول محور واحد تجعل الأجر على العمل يدور مع النية وجودًا وعدمًا، وأجرًا ووزرًا. فالعمل (ولو كان دنيويًا ومهما كان صغيرًا) ينقلب مع النية الطيبة إلى طاعة وقربة إلى الله طالما قصد به وجهه. والعكس صحيح بمعنى أن العمل مهما كان تعبديًا ومهما كان كبيرًا فإنه يتحول في ميزان من قام به إلى معاصي وأخطاء إذا اقترن بالنية السيئة. وتعتبر النية سيئة إذا قصد بالعمل غير وجه الله، أو الله وغيره. ولا تكون النية حسنة إلا إذا قصد بالعمل وجه الله فقط. فهو سبحانه أغنى

الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً قصد به غير الله، فليس لله فيه شيء وليطلب ثوابه من عند من أراد صاحب العمل رضاه. ويوم القيامة ينادي الواحد القهار ويقول من عمل عملاً أشرك فيه غيري فليطلب ثوابه من غيري. ولقد خسر هؤلاء الذين أشركوا بالله وضل عنهم ما كانوا يفترون. :﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام].

صفوة القول إذن في هذا الدرس أن الإيمان القلبي بالله وحده لا أجر عليه ولا جدوى منه، وكذلك الأعمال مهما كانت صالحة وحدها دون أن تكون موصولة بقلب يؤمن بالله لا قيمة لها وتظل مبتورة الفائدة عقيمة الأجر. وعبثًا يحاول صاحب هذه الأعمال أن يكون مأجورًا عليها، بل ربما كان مأزورًا بسبب قيامه بها ابتغاء غير الله. فعمل يؤدي لغير وجه الله، أو إيمان بالله بلا عمل يصدق هذا الإيمان فهو كالمنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

التطبيق الثاني (سورة الحجرات)

هذه السورة يقوم بها أعظم تطبيقات منهج الإسلام الصحيح الذي – كما سبق البيان – يقوم على ركني الإيمان القلبي، والسلوك الحركي الذي يستقيم مع هذا المنهج. فهما صنوان متلازمان تلازم الشمس والنور، والعطر وريحها الفواح. فلا انفكاك لأحدهما عن الآخر، وإلا أصبح الواحد منهما من غير أخيه هو والعدم سواء. فهذا المنهج هو الذي يضبط به المسلم إيقاع حركته على الأرض فتجده يعرض العمل أولاً على منهجه الذي يأمره بالسلوك الذي يليق به فهو ينفعل لمنهجه لا لطبعه، وينفعل لمرضاة ربه لا لهوى نفسه. ومن كان هذا خلقه كان قرآنا يمشي على الأرض. فالقرآن وسنة النبي ﷺ كلاهما نوران يسير على ضوئهما، ويعيش على هداهما.

وسورة الحجرات من أبرز سور القرآن تعرض هذا التكامل، والانسجام بين الإيمان والسلوك. وإن كان هذا التناغم بين هذا، وذاك ليس حكرًا على هذه السورة. فالقرآن كله يؤكد ضرورة الاستقامة وفق المنهج الإيماني :﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴿١١٢﴾ ﴾ [هود]. ولعل سبب اختيارنا لهذه السورة كنموذج لهذا المنهج التوافقي يكمن في أن الغالبية العظمى من آياتها احتفلت بهذا النوع من التكامل بين القيم الإيمانية والقيم السلوكية الأخلاقية في

بعض جوانب الحياة بشكل يميزها عن غيرها من سائر سور القرآن. وكأن هذه السورة أفردت أكبر مساحة لهذا التوافق الإيماني الأخلاقي، وكرّست أكثر آياتها لخدمة هذا الهدف، وذلك على النحو الذي سيأتي بيانه.

مشهد التوافق الإيماني السلوكي في سورة الحجرات:

هذه السورة تترجم كثيرًا من القيم الإيمانية (وليس كلها بالطبع) إلى واقع حركي سلوكي أخلاقي متميز يستقل به المؤمنون بهذا المنهج الذي اختص به الله الجماعة الإسلامية. والتي صارت بفضل الله عليها، وتمسكها به خير جماعة أخرجت للناس. وهذه السورة تقدم للبشرية جانبًا من خصائص هذه الجماعة.

فتقول هذه السورة، إن هذه الجماعة لها أدب مع الله، وأدب مع رسول الله. هذا الأدب موجود في فطرته وقلبه وعقيدته ويجري في عروقه ودمه، ويتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام معبوده، والرسول الذي يبلغ عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ فلا يسبق العبد المؤمن ربه في أمر أو نهي، ولا يمار به في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه، بل يسلم بربه تسليمًا لأنه لا يجعل لنفسه رأيًا مع ربه خشية منه، ورهبة وحياء منه وأدبًا. عن ابن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية «أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة» وقال الضحاك «لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم» روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه - بإسناده - عن معاذ ﷺ قال له النبي ﷺ حينما بعثه لليمن **«بم تحكم؟ قال بكتاب الله، قال فإن لم تجد قال بسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد قال ﷺ أجتهد رأيي فضرب ﷺ في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ورسوله»**.

ها هو منهج صحابة رسول الله ﷺ في التلقي والتنفيذ. وهم الذين حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم. فقد كان رسول الله يسألهم عن اليوم والمكان وهم يعرفون الإجابة. إلا أنهم يجيبوه ﷺ بـ «الله ورسوله أعلم» فعن نفيع بن الحارث الثقفي ﷺ أن النبي ﷺ سأل في حجة الوداع أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذي الحجة؟ قلنا بلى. قال أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس البلدة الحرام؟ قلنا: بلى.

فقال: أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. فإلى هذا الحد كان صحابة رسول الله لا يقدمون بين يدي الله ورسوله. وهكذا كان منهج الاتباع والانقياد عندهم فور تلقيهم الأمر من الله وتوجيه الخطاب إليهم من السميع العليم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا... ﴿٥١﴾﴾ [النور].

ولما لهذا العبد التقي النقي أدب مع ربه، فله كذلك أدب مع رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات].

قال البخاري: حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر بن أبي مليكة قال «كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفع صوتهما عند النبي ﷺ عندما قدم إليه ركب من بني تميم في السنة التاسعة من الهجرة فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أن يؤمره على الركب، وأشار الآخر برجل آخر. فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي.. فقال عمر: ما أردت خلافك (رضي الله عنهما) فارتفع صوتهما في مجلس النبي ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ... ﴿٢﴾﴾ [الحجرات]. وقد روي أن سيدنا عمر بعد هذه الآية ما كان يسمع رسول الله حتى يستفهمه، كما روي أن سيدنا أبا بكر قال لرسول الله ﷺ لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالهمس) فهكذا ارتعشت قلوبهم، وارتجفت على وقع هذا النداء العلوي الحبيب، وتأدبوا معه ذلك الأدب الذي يميز شخص رسول الله، ومجلس رسول الله تميزًا يناسب اصطفاء الله سبحانه له ﷺ. وتلك صورة أخرى من صور الاتباع والانقياد والإذعان التي تشهد بتصديق العمل لما ذكر في القلب العامر بالإيمان.

وبعد ذلك تتناول الآيات أدبًا ثالثًا يبين للمؤمنين كيف يتعاملون مع الأنباء التي تصل إلى أسماعهم. والأصل في الجماعة المؤمنة أن أبناءها موضع ثقتها، وأن الأنباء التي تتردد على ألسنتهم مصدقة ومأخوذ بها. ولكن الفاسق – وهو مظنة الكذب – فإن خبره

محل شك حتى تثبت صحته. وبذلك يستقيم أمر الجماعة ولا تتعجل في تصرف يقوم على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم على جهالة وتسرع. ومن ثم تندم على ارتكاب ما يغضب الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] وفي أعقاب أدب التثبت والتأكد من خبر الفاسق، وتمحص الأمر أولاً قبل التعامل مع خبره والتصرف بناءً عليه يأتي النداء العلوي بشأن أدب آخر يحمي الأمة من التفرق والتشرذم والخصام الذي قد يكون بسبب العجلة والتسرع والاندفاع وراء خبر الفاسق.

فلربما كان الانسياق وراء نبأ الفاسق، وعدم تحري أمره سببًا في الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين. فإن حدث ذلك فقد أوجبت الآيات أن يقوم المؤمنون من غير الطائفتين المتخاصمتين بالصلح فإن أبت إحداهما التراجع عن موقفها، والرجوع إلى الحق، فعلى المؤمنين أن يقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، وتقبل أن تحتكم إلى كتاب الله. وعند ذلك يتعين الحكم بينهما بالعدل طلبًا لرضا الله وطاعة له سبحانه. ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] وبعد استقرار أمر الجماعة المؤمنة تحت لواء الأخوة الإسلامية، وتجمعها بعد فرقة، وتأليف قلوبها بعد خصام، وإشاعة السلام النفسي والاجتماعي بينها. تأتي السورة بأدب آخر يناسب هذه الأخوة النقية الطاهرة فلا يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء، ولا يلمز أحد أخاه، ولا يسخر منه، ولا يناديه بلقب يكرهه ويذري به. وطالما كان المؤمنون أخوة فكرامة أحدهم من كرامة الآخرين، ولمز واحد منهم يعتبر لمزًا وجرحًا للمجموع. وليعلم الجميع بأن القيم الحقيقية للإنسان توزن بميزان الله وليس بموازين الأرض. فإذا كانت الجميلة قد تسخر من القبيحة، والغني يسخر من الفقير، والقوي من الضعيف، وصاحب العيال من الأبتر، والكبير من الصغير فليست هذه القيم هي التي يعول عليها في وزن الإنسان، بل يوزن الإنسان بميزان الله الذي أنزل الحق والميزان. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ ... ﴿١١﴾ ﴾.

ثم تشير الآيات إلى أدب آخر يحلق به هذا العالم في آفاق أكثر رفعة وسموًا. فلا تنهى هذه الآيات فقط عن السخرية والتنابز بالألقاب على نحو ما سبق، بل تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في اتجاه الطهر والنقاء فتدعوا إلى تطهير الضمائر، والقلوب من أن يلوثها سوء الظن بالآخرين فلا يحل المؤمن أن ينهش أخاه بهواجس الظن، والشكوك والشبهات حول تصرفات لا يقوم دليل عليها. ويقول ﷺ **«إذا ظننت فلا تحقق»** أخرجه الطبراني بإسناده عن حارثة بن النعمان. ومعنى هذا أن الناس يظلون أبرياء مكفولة حرياتهم وكرامتهم وحقوقهم واعتبارهم إلا إذا وجد دليل على إدانتهم. ومن ثم يمتنع على المسلم أن يسيء الظن بأخيه، إلا بالشرط السابق، وإلا يكون آثمًا. ثم يأتي التنويه عن أدب آخر ربما كان ثمرة سوء الظن. وهو امتناع المسلم عن التجسس على الآخر الذي قد يكون الحركة التالية لسوء الظن في اتجاه كشف العورات، ومطالعة السوءات. والآيات تحارب هذا العمل الأخلاقي، وتنعته بالدناءة والسوء وذلك في إطار أهداف منهج الإيمان في النظافة ومكارم الأخلاق. قال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا أبو معاويه، عن الأعمش عن زيد بن وهب قال أتى بن مسعود، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به. وقالﷺ: **«من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها»**. رواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد. ثم يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب يبدعه القرآن. فعن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أرأيت لو كان فيه ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته. رواه الترمذي وصححه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ...(١٢)﴾. هذه الآداب التي جاءت بها سورة الحجرات، أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع بعضهم ترسم عالمًا نظيفًا طاهرًا نقيًا.

وتأخذ هذه الآداب بيده إلى أعلى آفاق الكمال، ومدارج الطهر والعفاف وترتفع به من تلك الوهدة الوبيئة، ومن سفوح الجاهلية المظلمة إلى أعلى ما يمكن أن تكون عليه حال الجماعة المؤمنة. ولا عجب فإن هذه الآداب تليق بأمة جعلها الله خير أمة أخرجت للناس. وهذه الآداب لا تمثل إلا جانبًا قليلاً من حياة هذه الأمة التربوية والنفسية والاجتماعية

والأخلاقية وقد اخترنا هذه السورة مثلاً لهذه الجوانب حيث إنها من السور التي احتفلت بضبط إيقاع الحركة والسلوك والأخلاق على هدى الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل. فأين ما يقوله الليبراليون الذين يفتنون بالأنظمة الديمقراطية الغربية ويتباهون بها؟ أين دعاواهم تلك؟ وأين موقعه من هذا الأفق الراقي والمنهج المتميز؟ إن هذه اللغة التي تتحدث بها الآيات من أجل قيام مجتمع طاهر عفيف نظيف القلب عظيم الشأن لا يعتقد عاقل أن يكون له وجود في دنيا البشر. إنها هو نسيج وحده لا يمكن أن يكون إلا من صنع صانع البشر. وبذلك فإن هذه السورة تقدم نموذجًا لجماعة مؤمنة بحق. فهي تؤمن بالله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقوم بذلك الركن الإيماني القلبي، ويتلازم مع هذا الركن عمل الشرائع والقوانين التي تحكم حركة الإنسان على الأرض في علاقته بالإنسان، وكذا علاقته بالأكوان التي تحيط به، وكذلك عمل الشعائر التي تجسم علاقة هذا الإنسان التعبدية بربه. وبذلك يقوم التناغم والتناسق بين الشعور والشريعة والشعيرة ومن الجميع يتحقق ركنا الإيمان الذي استقر في القلب وصدقه العمل.

المبحث الرابع

التوحيد والسياسة

هذا المبحث وثيق الصلة بالمبحث السابق «نطاق منهج الهداية» وهذه الصلة صلة جزء بكل. ذلك أن الدرس الأول يقوم على الارتباط الوثيق بين الإيمان بالله والعمل الصالح ارتباطًا يقوم بهما الإيمان الحقيقي الذي لا انفصام لعروته الوثقى. والعمل الصالح الذي يرتبط بالإيمان بالله يشمل كل مناحي الحياة كلها عبادة، وأخلاقًا، ومعاملة في جميع صورها. وقد عرضت سورة الحجرات صورًا من هذه المعاملات. ومن أمثلتها كيفية التعامل مع الأخبار التي تذاع من الغير الذي يظن بهم الكذب، وكذا النهي عن سوء الظن بالغير، واجتناب التجسس...إلخ، من الآداب التي تعرضت لها سورة الحجرات في موضعه. فإذا كان الدرس الأول يتعرض للأعمال الصالحة بشكل عام وفي جميع مجالات الحياة فإن هذا الدرس يتناول جزءًا من هذه المجالات وأعني به المشهد السياسي من هذه الحياة. ولقد رأيت من المناسب أن أخصص لهذا الجانب السياسي درسًا خاصًا، ذلك لأن الجوانب السياسية تعتبر قاطرة جميع الجوانب الاجتماعية فإن صلحت صلحت كافة الجوانب، وإن فسدت فسدت كل الجوانب. فهي بمثابة القلب من الجسد. إذ صلح صلح الجسد كله. وأنها بمثابة الراعي من الرعية، بحيث إذا صلح الراعي صلحت الرعية وإذا فسد فسدت.

لا إله إلا الله ومحتواها السياسي:

الدعوة إلى لا إله إلا الله التي كلف بها المبعوث رحمة للعالمين محمد ﷺ أحدثت تغيرًا جذريًا في جميع الأوضاع الاجتماعية لمجتمع الجزيرة العربية، وكذلك بالنسبة لسائر العالم المعمور آنذاك قاطبة.

ولعل أكثر الأوضاع تغيرًا، وتأثرًا، تلك الأوضاع السياسية التي سنكتفي بالحديث عنها للأسباب سالفة الذكر. فإذا كان أكثر الأوضاع تأثرًا بهذا الحدث الأعظم هو الوضع السياسي لهذا المجتمع، كيف؟

عندما يذكر الوضع السياسي بشكل عام. فإن أول ما يقفز إلى الذهن تلك القواعد التي تحكم العلاقة بين السلطان والأفراد أو الحاكم والمحكوم. وعندما يذكر الوضع

السياسي لمجتمع الجزيرة العربية. فإن أول ما يمر بالخيال صورة هذا المجتمع الذي يتألف من طبقتين الفجوة بينهما كبيرة للغاية، فطبقة الحكام (وهي تمثل القلة القليلة) يحل لها كل شيء وتستبيح كل شيء. نفوذ بلا حدود، وحرية بلا أدنى قيود، اللهم إلا المصالح والأهواء. وفي المقابل توجد طبقة أخرى (وهي تمثل الكثرة الكاثرة) حرام عليها كل شيء، لا حق لها في أي شيء، بل تدفع حياتها، وحريتها ومالها لحساب الطبقة الحاكمة. ولا عجب فهي مملوكة للطبقة الأخيرة كما يملك الرجل متاعه وأغراضه. تلك هي تركيبة مجتمع الجزيرة العربية قبل بعثة المصطفى ﷺ. وهنا يقفز هذا السؤال. ما هو أساس هذه التركيبة الديمجرافية الجائرة؟ وكيف بقيت هذه التركيبة لصالح الطبقة الحاكمة، رغم جورها ولعقود طويلة من الزمن؟

والإجابة:

أن الجميع عبدوا أصنامًا من دون الله، وتماثيل صنعوها من الحجارة، وادعوا أنها (أي هذه التماثيل) تقربهم من الله زلفى، ولذلك كانوا يقدمون لها القرابين من الأنعام والحرث. رغم إيمانهم الثابت بأن الله الواحد الأحد هو رب السماوات والأرض رب العالمين: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾، وكذلك الآية (٨٧) من نفس السورة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. أما عن سبب عبادتهم لهذه الأحجار فلأنها: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾. وبالرغم من أن هذه الأوثان لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر، إلا أنهم أحبوها كحبهم لله. : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا ... ﴿١٦٥﴾ ﴾[البقرة]. والذي جعلهم يحبونها كحب الله ويعبدونها من دون الله هو الهوى والمصالح وحب النفس والذات... كيف؟

الاعتقاد بأن هذه الأصنام معبودات من دون الله، وأنها واسطة بين الله الواحد الأحد، وبينهم تقربهم من الله ، وتجعله سبحانه يقبل دعاءهم، وصلاتهم ويكفل لهم أسباب الرزق والعطاء. كل ذلك يدعو إلى تعظيمها وتقديم القرابين لها. وبالتالي فإن القائمين عليها (أي على أمر هذه الأصنام) ينالون من التعظيم والقداسة وحب الناس لهم مثلما لهذه الأصنام من أهمية في نفوسهم.

ويطلق على هؤلاء القائمين على أمر هذه الأوثان (جماعة الكهنة) وهؤلاء يدَّعون أن لهم صلة خاصة بهذه الآلهة. وهذه الصلة لا تؤتى لأي أحد ولا ينالها إلا المقربون من هذه الآلهة الصغيرة. وهؤلاء كان لهم نصيب معلوم من الأنعام والثمار التي تقدم لهذه الآلهة قربانًا، كما يؤول إلى ملكيتهم ما يتبقى منها. وبهذا الاعتقاد يمتلكون الثروة الطائلة، فضلاً عن نفوذهم في نفوس الناس، ومكانتهم في قلوبهم. فهم أصحاب مصلحة حقيقية في الترويج لهذا المعتقد الظالم، لأنه يخدم مصالحهم، ويحقق مطامعهم في الثروة والنفوذ.

فلا عجب أن ترى أشراف قريش والقبائل الأخرى يغدقون الأموال والهدايا والمنح والعطايا على هؤلاء الكهان. وهؤلاء يباركون هؤلاء، ويدعون لهم بطول العمر، وسعة الثراء. وليس هناك ما يمنعهم من أن يكتبوا لهم صكوك الغفران. وكل ذلك على حساب طبقة الرقيق التي يسخرها طبقة الحكام لخدمة أهوائهم ومصالحهم. وسدنة الأوثان (وهم الكهان) يباركون هذا النظام.

فالحكام والأشراف إذن يأخذون شريعتهم في حياتهم الدنيا، ويستمدون قوتهم، وتمكينهم في الأرض، وتسخير طبقة الرق من أجل مصالحهم وإشباع مطامعهم من سدنة هؤلاء الأصنام. وهؤلاء السدنة ينالون الحظ الوافر من ثروة هؤلاء والتعظيم لهم والهيبة منهم.

بعد هذا الإيضاح الموجز يمكن أن يتصور القارئ أطراف اللعبة السياسية في الآتي:

- الكهنة، وهم أصحاب السلطة الزمنية والدينية على السواء.
- طبقة الأشراف. وهم الذين يستمدون القوة من الكهان الذين يروجون لصناع الآلهة الصغيرة من الأحجار التي تقرب إلى الله زلفى.
- عامة الشعب، وهم طبقة الرقيق المسخرة من أجل خدمة الأشراف والكهان.

والمتأمل في قيام هذا النظام الاجتماعي على جوره يجده يقوم على خرافة نجح الكهنة في التسويق لها، ابتغاء النفوذ والثراء، ومول هذه الخرافة وآزرها طبقة أصحاب الثروة والنفوذ الأدبي، بغية تحقيق مصالحهم، وإرضاء نزعاتهم الدنيوية. والذي دفع الثمن غالياً هو السواد الأعظم من الناس.

وتتمثل هذه الخرافة في الاعتقاد بأن هذه الأحجار هي آلهة تعبد من دون الله لأنها تقرب أفراد هذه المجتمعات عبيدًا ومعبودين إلى الله زلفى.

هذه الأسطورة، وتلك الخرافة، وهذا الشرك المبين، والافتراء العظيم، كان هو قاعدة الانطلاق نحو مجتمع الجاهلية الأولى مجتمع الشرك والضلال والظلم والجهل والعمى والتيه. وسط هذا التيه المفعم بالظلمات والظلم والضلال والجهل بعث المصطفى ﷺ لهدم هذا البنيان الفاسد، ويرسخ القواعد لبناء جديد يقوم على الحق والعدل والهدى والنور.

فكان أول ما بعث محمد ﷺ من أجله الدعوة إلى (لا إله إلا الله).

انظر إلى مفردات العبارة [لا إله إلا الله].

توحي بعدم وجود إله أصلاً، الذي يسمعها أو يقولها أول ما يقفز إلى خاطره هو خلو الكون من إله، ثم بعد أن يصل هذا المعنى إلى الذهن فإذا بمن يسمع أو يتكلم يصل إلى الشق الثاني من العبارة [إلا الله].

ليتحقق المقصود لها، وهو وحدانية الله، وأنه سبحانه ليس في الكون سواه لا شريك له.

فكانت الدعوة إلى [لا إله إلا الله] تقرع سمع وبصر أولئك الذين اتخذوا من دون الله آلهة تعبد من دونه. فالخطاب العلوي من العلي القدير واضح أشد الوضوح، ولاذع غاية اللذوع لكل أصحاب الكهنوت، وأصحاب التعددية في الآلهة والنفعية فهي، أي تلك الدعوة تهتف بسقوط الشرك والمشركين والفسدة والمفسدين والظلم والظالمين إيذانًا بعالم الوحدانية والتوحيد الذي أصبح بفضل هذه الدعوة محررًا من الرجس ومطهرًا من كل شرك ونقيًا نظيفًا من كافة صور الطاغوت.

كانت هذه الدعوة تحمل إنذارًا لجماعة المنتفعين دون وجه حق بدعوى الشرك أن يفيئوا إلى الحق وأن يعودوا إلى الصواب.

وإذا كان مجتمع الجاهلية اعتمد في قيامه هذا على هذه الخزعبلات والاعتقاد بأن الأصنام المعبودة من دون الله تقرب إلى الله، فإن الدعوة التي جاء بها المصطفى ضربت هذه الخرافة في مقتل وأقامت مجتمع التوحيد الذي سقط به هذا الوسيط (الأصنام).

وبسقوط هذا الوسيط يسقط نظام الكهنوت المزعوم الذي يرتبط في قيامه بالأصنام التي سقطت. وبالتوحيد الذي ركيزته (لا إله إلا الله) يتجه العبد إلى ربه مباشرة دون أية وساطة في الطريق بعد أن أسقط التوحيد هذا الوسيط.

وبالخلاص من هذا الوسيط تعود العلاقة خالصة بين العبد وربه مباشرة.

هذا هو السبيل الخالص من أي شرك من أي مظهر من مظاهر الوساطة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ...﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وبهذا يتضح قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب].

مكانة الإنسان في النظام الإيماني الجديد:

سبق القول بأنه بانهيار الكهنة والكهنوت إثر انهيار الوسيط [الصنم المعبود] صارت العلاقة بين الإنسان وربه علاقة مباشرة خالصة من الشرك ومطهرة من الرجز والأوثان. وكلما كانت الصلة خالصة بين العبد وربه كانت منزلة العبد من ربه بقدر إخلاصه لله سبحانه وتعالى. ومن ثم أصبح الإنسان في هذا النظام الإيماني الجديد هو الذي يملك إرادته بعد أن استرد حريته، وكرامته التي كانت بالأمس ملك لطبقة الأشراف، كما أصحبت طبقة الأشراف على قدم المساواة مع طبقة العبيد لها ما لها وعليها ما عليها، وصار الجميع متساوين كأسنان المشط أمام شريعة الحق التي جاء بها أعظم الخلق. تلك الشريعة التي أعلنت عن ميزان القيم الحقيقي لهذا النظام الإيماني، ألا وهو: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] فكان هذا الإعلان عن هذا الميزان الحقيقي لقيم الأرض هو نقطة التحول عن الآلهة المفتراة التي هي من زعم وزيف الكهان ابتغاء المال والهوى والنفوذ. ولنفس السبب (الهوى والمال والنفوذ) طاب هذا الزعم الفاسد، والمعتقد الظالم لدى طبقة الأشراف والوجهاء الذين استعبدوا الرقيق، ووظفوا كل طاقاتهم وجهدهم وثمار سعيهم لحسابهم. وكأنهم فتحوا حسابات باسمهم في بنوك النفوذ والسلطان على حساب جهد وعرق هؤلاء الرقيق.

انظر إلى هؤلاء الرقيق وهم يقفون على قدم المساواة مع هؤلاء الأشراف حيث يخضع الجميع لقاعدة واحدة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

انظر إلى الرجل الفقير الأعمى (ابن أم مكتوم) يجيء إلى رسول الله ﷺ. وهو مشغول بأمر النعر من سادة قريش، وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل (عمرو بن هشام) وأمية ابن خلف والوليد بن المغيرة ومعهم العباس بن عبد المطلب. والرسول يدعوهم إلى الإسلام. ويرجو ﷺ بإسلامهم خيرًا للإسلام في عسرته وكبوته بمكة. وهؤلاء يقفون ضده بأموالهم وجاههم وسلطانهم يصدون الناس عنه ويكيدون له كيدًا. يأتي هذا الرجل الأعمى والفقير إلى النبي ﷺ وهو مشغول بأمر هذا النفر لا لنفسه ولا لمصلحة شخصية له (وحاشاه). فلو أسلم هؤلاء لانزاحت من طريق الإسلام عقبة كبيرة وفي طريق الدعوة شوكة حادة، وانتشر الإسلام في قريش وما حولها من القرى.

يأتي هذا الرجل في هذا الوقت يطلب من النبي أن يقرئه ويعلمه مما علمه ربه. وهو يعلم بانشغال النبي ﷺ بهذا النفر من صناديد قريش وكبرائها. فيغضب النبي ﷺ لمقاطعة الرجل له وهو مشغول بنصرة دينه. فيكره الرسول ذلك من الرجل وتظهر الكراهية في وجه النبي ﷺ الوجه لم يره الرجل، فيعبس النبي ويعرض عن الرجل الفرد الفقير وهو يريد لدينه الخير الكثير.

هذا الموقف من النبي ﷺ ربما كان طبيعيًا ومنطقيًا بموازين النظام الاجتماعي المعاصر لتلك المناسبة، وربما كان طبيعيًا كذلك بموازين واعتبارات النظام العالمي الجديد، وربما كان كذلك منطقيًا بمقاييس أي نظام أرضي في كل زمان ومكان. لكن هذا الموقف ليس طبيعيًا بمقياس هذا النظام الإيماني الجديد، وليس منطقيًا بموازين الدعوة التي يدعو إليها الرسول ﷺ إن هذا الموقف عوتب فيه النبي. وقد أفصحت السماء عن الموقف الحقيقي:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾[عبس].

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾[عبس] تأتي الآية وكأنها تحكي للرسول ﷺ حكاية وقعت مع شخص آخر غائب تكريمًا لرسول الله ﷺ ورحمة به حتى لا يواجهه المولى – عز وجل – بهذا الأمر الكريه إلى نفسه. ثم يتحول التعبير من الرواية عن الغائب إلى خطاب النبي ﷺ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ ﴾[عبس] أي وما يدريك

لعل قلب هذا الرجل البسيط يشرق بنور الإيمان ويسطع بشمس الهداية. وهذا هو الأمر الثقيل في ميزان الرحمن. أما من أظهر الاستغناء عنك، وعما لديك من الهدى والرشاد والخير والطهارة والنور، فأنت تحفل بأمره وتهتم به، وتتعب لهدايته. وما يضيرك أن يبقى في دنسه ورجسه ولا تسأل عنه ولا تنصر به.

هذا هو الإنسان في ميزان الله. قيمته وكرامته بتقوى الله – عز وجل – ولو تجرد من كل مقومات واعتبارات الأرض من جاه ومال ونسب وغير ذلك.

وإذا كانت الآيات قد وردت في شأن شخص معين وبمناسبة معينة فالعبرة بعموم الألفاظ وليست بخصوص الأسباب. فإذا كانت الآيات تأتي تعقيبًا لحادث فردي ومناسبة محدودة وعلى طريقة القرآن المعروفة في تقرير الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد من خلال تغطية حادثة فردية.

إنها الحقيقة المطردة والمنهج الذي يرتفع بقيمة الإنسان من الدرك الأسفل إلى أعلى مدارج الكمال ارتفاعًا لا يخطر على بال بشر بأي حال. ولا شك في أن وروده في عقل الإنسان محال اللهم إلا أن يأتي إلينا من لدن الكبير المتعال.

مقومات الوضع السياسي في الإسلام:

هذا هو الإنسان في ميزان الإسلام. يستمد قوته وكرامته وعزته بقدر إيمانه بالله – عز وجل – وعمله الصالح، لا يستمد قوته مما يملك من مال أو سلطان أو أنساب. يستمد غناه من فقره لربه، ويستمد حريته من عبوديته لله سبحانه وتعالى. ويستمد عزته بقدر إيمانه بأن العزة لله جميعًا.

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ].

تلك هي قيمة الإنسان في شريعة الإسلام، فأين ما تنادي به منظمات حقوق الإنسان في القرن الواحد والعشرين من هذا القدر الثمين والمقدار العظيم الذي يوزن به الإنسان كإنسان في شريعة الإسلام؟ فلا يعول في وزن الإنسان بماله وعياله ولا عرقه ولا حسبه ولا نسبه، ولا أي شيء اللهم إلا على إيمانه والعمل الصالح.

إنها قيمة دونها أي قيمة، ورؤية دونها كل الرؤى، وعدل لا يعدله عدل أن يُقَيِّم الإنسان من خلال ما يملكه ويقدر عليه، الإيمان والعمل الصالح، وكلاهما يقع في قدرته وفي متناول يده، ومن ثم فإنه يستطيع صنع نفسه وبنائها بملء إرادته، فهو يملك مقومات هذه الإرادة. ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

ولكي تدرك قيمة هذه الرؤية، فانظر إلى الرؤية التي تقابلها عندما يقيم الإنسان من خلال ما لديه من أموال أو سلطان أو أعراق أو لون أو جنس. فكل هذه مقومات لا فضل له فيها إن وجدت ولا ذنب عليه إن لم توجد. فيا لجور قاعدة تقيم الإنسان بأشياء وهبت له أو حرم منها قدرًا!

ومن مجموع هذا الإنسان الذي يحمل هذه القيمة يتكون الشعب أو الجماعة المسلمة والتي يتولى أمورهم واحد منهم يبايعونه بملء إرادتهم الحرة العزيزة القوية الأبية، وهو إن كان واحدًا منهم إلا أنه أكثرهم عبئًا.

يقول سيدنا أبو بكر الصديق: «إني قد وليت عليكم ولست بخيركم إلا أن الله جعلني أكثركم عبئًا».

وهذا الإنسان وهذا الأمير كلاهما خاضع لكتاب الله وسنة نبيه المصطفى ﷺ.

وبذلك يكون الإسلام قد رسم ملامح النظام السياسي، وجعل مكونات هذا النظام في الشعب أو الجماعة المؤمنة التي تتكون من مجموع الإنسان الفرد الذي استعاد كامل حريته وإرادته، ومن الحاكم الذي هو واحد من هذا المجموع الذي يتولى أمر هذا المجموع بمبايعته له. وكلاهما ملتزم بشريعة الله رب العالمين في كافة مجالات الحياة شريعة وعقيدة ودولة ودين.

فكيف يقال بعد ذلك أن الإسلام لا علاقة له بالسياسة؟! لا أملك إلا أن أقول لمن يقول ذلك إن الإسلام سياسة أولاً قبل أن يكون عبادة. فهو أي الإسلام يقوم أولاً على تصور سياسي يجر وراءه كل شيء بعده من أمور الدنيا والدين على النحو الذي سبق تفصيله من قبل.

ودليل ذلك أن القرآن ظل يتنزل في مكة ولمدة ثلاثة عشر عامًا كرس فيها هذا الوضع السياسي. أبان هذه الفترة عن قيمة الإنسان كإنسان، ومفهوم لا إله إلا الله، إيذانًا بإعلاء

كلمة التوحيد، وإسقاط معاقل الشرك في كافة صوره وألوانه لتحرير علاقة العبد المباشرة مع ربه، وتطهيرها من شبهة الشرك، إيذانًا بإسقاط أية وساطة في طريق الله الواحد الأحد. وقد كان من أعظم تطبيقات التوحيد خضوع الجميع حاكم ومحكوم لشريعة الله رب العالمين.

الإسلام دين ودولة وليس دينًا فقط:

الكلام في هذا الموضوع مكمل لما قبله، ومتمم له، ومؤكد عليه، والكلام هنا يأتي إجابة على سؤال هل الإسلام دين ودولة أم دين فحسب؟ بمعنى هل الإسلام عقيدة وشريعة أم عقيدة فقط؟ ويمكن أن يكون السؤال بصياغة أخرى: هل الإسلام مكانه في القلب فقط أم في القلب والسلوك معًا؟

وقد سبق الإجابة على هذا السؤال، ونحن بصدد التأكيد على أن الإسلام الحق يقوم على ركنين مجتمعين: إيمان يستقر في القلب، وعمل مصدق لهذا الإيمان القلبي.

وبذلك يتضح أن الإسلام عقيدة في القلب، وسلوك وحركة محكومان بخلق الإيمان وهذا الخلق هو الهدف الأساسي الذي تنشده البعثة المحمدية، فالكتاب الذي أنزله الله - عز وجل - على رسوله ﷺ والحكمة والنبوة التي اختص بها المبعوث رحمة للعالمين لا تبتغي إلا شيئًا واحدًا قوامه حروف ثلاثة، ألا وهو الخلق.

انظر إلى أعظم تجليات القرآن - وهو يزكي رسول الله ﷺ كله - فيقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]. واسمع إليه ﷺ وهو يحدد الهدف الأوحد من بعثته فيقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وإذا كان الخلق هو الضالة المنشودة من رسالة المصطفى ﷺ فبالطبع فإن هذا الخلق لابد أنه يستمد أصوله وقواعده من منهج الإيمان الذي قوامه السنة والقرآن.

وبالطبع أيضًا فإن هذا الخلق هو الذي يحكم الحركة والسلوك، بحيث يمكن القول بأنهما وجهان لعملة واحدة - الأخلاق وجه والسلوك والحركة تمثل الوجه الآخر.

انظر إلى ما أجابت به السيدة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها، عندما سئلت عن خلق النبي ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن».

نعم كان ﷺ قرآنًا يمشي بين الناس.

فإذا كان الإيمان أو الإسلام إيمانًا وسلوكًا وحركة يشهد عليها الخلق وما القرآن والسنة إلا إطار يرسم للمسلم الحق خارطة سلوكه وحركته وأخلاقه. فكيف يقال بعد ذلك أن الإسلام دين فقط أو عقيدة فحسب؟!

بذلك يغدو من نافلة القول، وفضل الحديث أن يقال إن الإسلام عقيدة وشريعة، أو دين ودولة، فهو أي الإسلام في غنى عمن يثبت له ذلك. والقرآن والسنة كلاهما غني بما يقوم به البرهان والدليل على ذلك. وهما خير ما يرد يدهما في أفواه من يقول بخلاف ذلك وحسبنا أن نلتقط من القرآن بعض اللقطات ولا نزيد حفاظًا على الوقت والمجهود.

١- يقول تعالى في سورة النساء: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء] والخطاب هنا كما جاء في كتب التفسير لجميع الناس، وفي جميع الأمانات، وليس الأمانات في معناها الضيق الذي ينحصر في الودائع فقط، بل المقصود هنا الأمانات في معناها الواسع. وأول من يدخل في هذه الأمانات هم الولاة والأمراء والحكام الذين يتوجب عليهم تحري العدل ورفع الظلم. كما يدخل في الخطاب كافة الناس إذ يتوجب عليهم حفظ الودائع وتحري الصدق في الشهادة والأخبار.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء] أمر الله الناس بطاعة أولي الأمر، وسبق ذلك الأمر لهم بطاعة الرسول، لأن القاضي أو الوالي إذا خالف أمر الله أو أمر رسوله فهو مردود عليه. وطاعة أولي الأمر من الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية واجبة ما لم تكن في معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وقد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ. وقيل أن أولي الأمر هم أهل القرآن والفقه الذين يأمرون بالحق ويفتون به وهم يعلمون.

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء].

فإن تنازعتم في شيء من أمر الحياة، وكما هو واضح من سياق الآيات أن مجالات التنازع بالطبع تتعلق بالحكم والسياسة وأمور الحياة الدنيا. فإذا حدث جدال أو نزاع من أية مسألة من هذه المسائل فإنه يتوجب على المخاطب بهذه الآيات الاحتكام إلى كتاب الله وسنة نبيه. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام]. هذا إن كنتم تعتبرون أنفسكم من المؤمنين بالله واليوم الآخر.

وقد نفى الله الإيمان عن أولئك الذين لا يحتكمون إلى الله ورسوله في جميع ما شجر بينهم من خلاف، ليس هذا فقط، بل اشترطت الآيات لثبوت صفة الإيمان الرضا بحكم الله ورسوله وقبوله والاطمئنان به: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

٢- ﴿ .... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة].

﴿ .... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة].

﴿ .... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة].

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

الآيات من ٤٤ وحتى ٤٧، واضح فيها أنها تكفر وترمي بالظلم والفسق كل من يحكم بغير ما أنزل الله في التوراة والإنجيل. وهذا بالطبع في زمن التوراة والإنجيل وقبل البعثة المحمدية ذلك أن القرآن ينسخ كل ما خالفه من الكتب المنزلة قبله.

والقرآن (كما هو واضح) في الآيات من (٤٨ – ٥٠) يوجب على جميع المخاطبين به الحكم بما أنزل الله من كتاب وسنة، وتحذر الآيات من اتباع الهوى في أية صورة، والالتزام بمنهج الله كله، وتؤكد على الانقياد لهذا المنهج في جميع جزئياته ومفرداته محذرة من ترك أي جزء، أو مفردة منه كسبًا لمصلحة، أو انحيازًا إلى هوى. بل هو الانقياد الكامل، والاتباع الشامل لكل المنهج، ذلك أن الحكم والأمر لله وحده لا شريك له. فالمؤمن لا ينبغي له أن يبتغي غير الله حكمًا. ومن ابتغى غير الله حكما فقد ابتغى حكم الجاهلية والطاغوت.

ولاشك أن المخاطب بهذه الآيات المحكمات البينات هم الولاة وأصحاب السلطان والقضاة وجميع الناس كل في حدود الأمانة المنوطة به (كما سبق القول في ذلك) فموطن الاختبار إذًا، وحدّ الإيمان وشرطه، هو موقف المخاطبين بالقرآن من هذا الابتلاء! هل يتبعون ما أنزل الله ويستعلون على أهوائهم خشية من ربهم وطمعًا فيه؟ أم أنهم يؤثرون هواهم وينساقون وراء مناهج أخرى؟

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت].

ويقول ابن عباس في بيان الفرق بين الكافرين والظالمين «من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يعمل به فهو ظالم فاسق».

٣- لله الحكم وحده لا شريك له:

ورد في غير موضع من الكتاب آيات محكمات بينات تؤكد على أن الحكم لله وحده سبحانه نلتقط منها:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[آل عمران].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ... ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يوسف].

هذه الموجة من الآيات التي تقدمت وأمثالها تنتشر بوفرة بين جنبات هذا الكتاب تستهدف إبراز حقيقة هذا الدين الذي يقوم على التسليم المطلق لصاحب السلطان المطلق، ولصاحب الألوهية والربوبية الكاملة الشاملة، وهو الله سبحانه وتعالى صاحب الملك، وصاحب العطاء والمنع والكفالة والرزق والفاعلية والقهر والنفع والضرر، كل ذلك لله وحده. ومن ثم يأتي الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله، والعبودية والولاء والحكم لغيره. وغير ذلك مناقض لحقيقة الإسلام فهو وحده الذي يستنصر به، ويعتمد عليه، ويتوجه إليه في الملمات وفي كل حال في البأساء والسراء.

وهذا هو بيت القصيد في صميم العقيدة، إمَّا إخلاص الولاية لله بهذه المعاني كلها فيكون الإسلام، وإما إشراك غيره معه في أي منها فيكون الشرك الذي لا يمكن أن يجتمع في قلب واحد هو والإسلام.

وإذا كان الله سبحانه، هو صاحب الولاية المطلقة، وهو الذي يقضي، ويفصل دون سواه. فإن هذا الفصل والقضاء مطلق المجال، وفي كل ميدان في كل أمر من أمور الحياة سياسيًا كان أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا أو تنمويًا أو ثقافيًا...إلخ. فالأمر لا يختص بأمور العبادات. بل الأمر هنا في هذا السياق يختص بأمور الدنيا شأنه في ذلك شأن أمور الدين، بل الاختصاص بأمور الدنيا والشئون العامة أظهر بدليل سياق الآيات الذي استعمل كلمة الحكم. وهذا التعبير أقرب إلى الشأن السياسي والشأن العام من شئون العبادات المحضة.

وكذلك. انظر إلى قوله تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ... ﴿١١٤﴾ ﴾[الأنعام].

لقد جاء هذا القول في أعقاب آيات تتكلم عن الحلال والحرام فيما يذكر اسم الله عليه، وفيما لا يذكر اسم الله عليه من الذبائح. وذلك لتقرير المفاصلة الكاملة في سلطان الله المطلق في كل شيء مهما كان من وجهة نظر المخاطبين به صغيرًا، ذلك أن الأمر يتعلق

بمبدأ، وإذا تعلق الأمر بمبدأ ديني فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدأ أو نقضه. ولا يهم أن يكون هذا الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أو لا يؤكل، أو أن يكون أمر دولة تقام أو مجتمع يساس. فهذه كتلك من ناحية المبدأ.

والمنهج القرآني يواظب دائمًا على ذلك، لتقرير ذلك المبدأ في كل مناسبة. ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسبة في كل تشريع في جميع الأمور صغيرها مثل كبيرها، ذلك أن هذا المبدأ، هو العقيدة، وهو الدين، وهو الإسلام. وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات[1].

٤- **قوله تعالى من سورة هود:** ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾.

قال القوم ذلك لشعيب عند دعوته لهم بألا يخسروا الميزان، وأن يفوا المكيال والميزان بالقسط. ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[هود].

وقد سبق القول بأن الدينونة لله وحده وله الحكم وحده في كل أمور الدنيا والدين صغيرها وكبيرها على السواء. وهذه الآيات تتناول بعض تطبيقات هذه الأمور مثل الآيات التي وردت في سورة الأنعام وتناولت موضوع الذبائح كإحدى تطبيقات هذا المبدأ، مبدأ السلطان المطلق لله في كل أمر. وها نحن أمام هذه الآيات التي تعرض لبعض أبرز تطبيقات هذا المبدأ الكلي الكبير.

هذه التطبيقات العملية التي تجري على الأرض تتعلق بالأخلاق والمعاملات، تتعلق بالأمانة والنظافة، وعدالة المعاملة، وشرف الأخذ والعطاء.

إن دعوة شعيب لقومه تضع حجر الأساس في شريعة التعامل فيما بينهم مع الأشخاص والأموال والمروءة والشرف.

---

(١) راجع تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب/ دار الشروق ج ٣، ص ١١٩٢-١١٩٣.

فقد كان أهل مدين (والتي تقع قريتهم في الطريق بين الشام والحجاز) يستطيعون (بحكم موقعهم) قطع الطريق على القوافل التجارية بين الشام والحجاز ويفرضون على أصحابها نوعًا من المعاملات الجائرة التي أشارت إليها الآيات.. انتقاص الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم.

فلما أمرهم أخاهم شعيب بذلك: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟...(٨٧) ﴾ [هود].

وما كان جوابهم هذا إلا دليلاً على الفهم الخاطئ لدعوة النبي، والفهم القاصر لهذه الدعوة. فهم لا يدركون، ولا يريدون إدراك أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة وصورة من صور العبودية. وأن العقيدة لا قيام لها بغير توحيد الله وإفراده وحده بالعبودية والسلطان المطلق، وترك ما يعبدونه من دون الله هم وآباؤهم. كما أن هذه العقيدة لا قيام لها كذلك بدون تنفيذ شريعة الله في التجارة، وتداول الأموال، وفي كل شأن من شئون الحياة. فهي لحمة واحدة لا يختلف فيها الاعتقاد عن الصلاة، وعن شرائع الحياة وأوضاع هذه الحياة جميعًا.

إن المعاملات والأخلاق لابد أن تربط بأصل ثابت لا يتغير باعتبارات متقلبة غير ثابتة.

تلك هي الفكرة الإسلامية التي تختلف في جذورها مع غيرها من أفكار البشر الاجتماعية وتصوراتهم الأخلاقية.

وهي حينما تستند إلى هذا الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة، وكذلك ينعدم تأثير البيئة عليها، والعوامل السائدة، فلا يكون المؤثر في أخلاق الناس، وقواعد تعاملاتهم فيما بينهم كونهم يعيشون على الرعي، أو يعيشون على الزرع أو الصناعة، أي عندما يصبح أساس التشريع للحياة كلها هو شريعة الإسلام. وقتئذ تغدو قاعدة الأخلاق، هي إرضاء الله، وانتظار ثوابه، وتوقى عقابه. وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعة الأخلاق والمعاملات للعلاقات الاقتصادية، والمتغيرات الاجتماعية، وغير ذلك من العوامل، والاعتبارات المتقلبة. كل ذلك يصبح لغوًا في النظرة الأخلاقية الإسلامية.

وبتأمل عالم اليوم ونحن في القرن الواحد والعشرين – وفي ظل النظام العالمي الجديد حيث قطعت البشرية أطوارًا وأشواطًا بعيدة المدى في النضج والتقدم والمادة والفهم نكاد لا نرى فرقًا بين أهل مدين قبل آلاف السنين، وعالم اليوم في تصورهم ولا في إنكارهم لدعوة شعيب لقومه. ذلك أن التصور الذي يمارسه عالم اليوم ليس بأذكى، ولا أكثر نضجًا من ذلك التصور الذي كان يمارسه عالم مدين.

وما أشبه اليوم بالبارحة! فالشرك الذي كان يزاوله أهل مدين أشبه ما يكون بالشرك الذي تزاوله البشرية في جملتها – بما في ذلك الذين يقولون أنهم نصارى أو يهود أو مسلمون إلا قليلاً، فالكل يفصل بين العقائد والشعائر من ناحية، والشرائع والتعاملات من ناحية أخرى فيجعل العقيدة والشعيرة لله وفق أمره، ويجعل الشريعة والتعاملات لغير الله وفق أمر غيره. وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله.

فهل اختلف ما يدعوا إليه الليبراليون وما يدينون به عما يذهب إليه هؤلاء في جملتهم؟؟ وقد سبق القول بأن هؤلاء الليبراليين والعلمانيين على السواء يعمدون إلى الفصل الواضح بين العقيدة والشعيرة من جانب والشريعة المعاملة والأخلاق من جانب آخر.

٥- فعل الرسول ﷺ وأصحابه من بعده:

يؤكد صحة التصور الإسلامي على هذا النحو الذي سبق، وأن الإسلام عقيدة وشريعة، ودين ودنيا ما ثبت عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يتصرف ﷺ وفق هواه، بل يتصرف وفق المنهج المرسوم له من ربه.

فقد كان ﷺ هو الذي يعقد المعاهدات مع سائر المعسكرات ففي صلح الحديبية – ودون الدخول في تفصيلات هذه المعاهدة – فقد كان على رأس المعسكر الإسلامي يملي على عليّ – كرم الله وجهه – بنود هذه المعاهدة بين معسكر الإيمان ومن دخل معه، وقريش ومن دخل في حلفها.

كما كان ﷺ على رأس المعاهدة التي أبرمها مع اليهود بكل قبائلها في المدينة. كما كان على رأس بيعة العقبة الأولى والثانية وغيرها. وكذلك كان على رأس جميع المعاهدات التي عقدت بين معسكر المسلمين وجميع المعسكرات الأخرى سواء معسكرات الشرك أو

معسكرات أهل الكتاب قبل أن يأتي الأمر بإنهائها، وبراءة الله منها ورسوله :﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾[التوبة].

ولا يجادل عاقل في أن إبرام هذه العقود والمعاهدات من أهم مكونات المشهد السياسي.

وكما كان ﷺ مضطلع بالمهام السياسية الكبرى، فقد كان رجلاً عسكريًا. فكان على رأس الجيوش الإسلامية في جميع الغزوات والمواقع المهمة على تفصيل ليس هنا محله. وفي شأن عسكريته ﷺ فقد صدر غير كتاب بعنوان عبقرية الرسول العسكرية، كما كان صلوات ربي وسلامه عليه يؤم المسلمين في جميع فروض الصلاة، كما كان يقري الضيف ويعين الضعيف ويحمل الكل ويواسي الناس في مصابهم ويشاركهم أفراحهم.

فكان ﷺ خير من ضرب المثل الأعلى في الفهم الصحيح لدين الإسلام، ولعقيدة الإسلام، والتلازم بين العقيدة والشعيرة من ناحية والشريعة والتعامل والأخلاق من ناحية أخرى.

وما فعل النبي ﷺ ذلك إلا ليعلِّم الناس ما عمله ربه، ويؤدب الناس كما أدبه ربه، ويدرب الناس الذين يدخلون في دينه على الفهم الواعي السليم لمنهج رب العالمين، لأنه ما بعث إلا ليكون قدوة للمسلمين :﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب].

كما ضرب صحابته ﷺ أبلغ المثل في الاقتداء به، والتأدب بشريعته، والسير على نهجه ومنواله حتى استحقوا قوله ﷺ **«أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»**.

وهكذا صار التابعون على نهج أصحاب النبي ﷺ وضربوا أعظم المثل في أن الإسلام عقيدة وشريعة ومعاش وميعاد.

وما أحرانا وأحوجنا إلى أن نتأسى بهذا السلف الصالح وأن نقتفي أثرهم، وأن نسير على نهجهم مصداقًا لقوله ﷺ **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي»**.

المبحث الخامس

الإيمان بالله منهج حياة

الإيمان بالله منهج حياة، وهذا معناه أن الإيمان منهج يحكم حركة حياة المؤمن. فالمؤمن يضبط حركة حياته وفق منهج ربه. فكل أمر من أمور حياته يعرضه على منهجه الذي قوامه إما أوامر يجب الامتثال لها، وإما نواهي يجب الانتهاء عنها. وهي كما أشار إليها فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي – رحمه الله – في كلمتين (افعل كذا ولا تفعل كذا).

فهذا المنهج يقتضي من المؤمن الحق أن يعرض كل أمور حياته، وحركة سلوكه على منهج افعل ولا تفعل. فهو ينتظر الإجابة من منهجه. فإذا قال له افعل كذا فعل، وإذا قال له لا تفعل امتثل ولم يفعل.

فالمؤمن الحق كما قال الشيخ الشعراوي – رحمه الله – ينفعل لمنهجه، ولا ينفعل لطبعه، وتلك قاعدة أصولية ترسم الطريق الذي يسير عليه المؤمن الذي يستقيم عليه حتى لا يحيد عن الهداية إلى الضلالة، ولا يحيد عن الرشاد إلى الغواية والفساد.

وهذه القاعدة الأصولية التي ترسم حركة حياة المؤمن وتبين له خارطة طريقه تجد جذورها في كتاب الله وسنة نبيه.

الدليل في القرآن على أن الإيمان بالله منهج حياة:

جاء القرآن بآيات وأدلة تفوق الحصر على أن منهج الإيمان بالله هو الذي يرسم للمؤمن الطريق المستقيم الذي يجب عليه السير فيه. ونلتقط من هذه الآيات وكثير ما هي ما يلي:

انظر إلى قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وبالطبع ليس هناك مجال للمقارنة بين ما يسير على هدى من الله وبينة من ربه، ومن هو متخبط لا يعرف طريقه.

قال تعالى في سورة محمد: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾.

ذلك أنه لا يستوي الذي يضبط حركة حياته وسلوكه وفق منهج الله، وهو في كل حركة يسير على بينة من ربه، والذي زين له سوء عمله فاتبع هواه. وقد جاءت الآية التي بعدها لتجسد هذا الفارق الكبير بين هذا الفريق وذلك، من خلال الجزاء الذي أعدته لكل فريق. فالآية التي بعدها تقول: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾.

مثل الجنة التي وعد المتقون، ويقصد بالمتقين الذين يمشون على بينة من الله، والذين يتبعون منهج القرآن حسبما جاء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، هذه الجنة التي هي جزاء هؤلاء الذين تمنهجوا بمنهج القرآن وأقاموا حياتهم على تقوى من الله ورضوان. هذه الجنة فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وثمرات كثيرة ولا مقطوعة ولا ممنوعة ومغفرة من الله ورضوان. هل هذه الجنات التي أعدت للمتقين كالنار التي أعدت لمن زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهواءهم وسقوا فيها ماء حميًا فقطع أمعاءهم؟

إن هذه الآية تظهر البون الكبير، والفرق الشاسع بين الفريق المؤمن والفريق الذي زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم، وذلك من خلال الجزاء المعد للفريق الأول وعقاب الفريق الثاني.

كما لا يفوتنا النظر إلى الآية السابقة على قوله تعالى: ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) ﴾ هذه الآية الأخيرة أعظم ما يكون مقدمة للآية الأخرى التي تظهر الفارق بين ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من جنات تجري من تحتها الأنهار، وهم الذين نعتوا بعد ذلك بأنهم (على بينة من ربهم)، وما أعد لأولئك الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام من النار وبئس المصير، وهم الذين نعتوا بعد ذلك بأنهم (زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهواءهم).

كل هذا يؤكد على حتمية اتباع المؤمن المنهج الإيماني والسير على هداه.

انظر إلى قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

بالطبع لا يستوي هذا مع ذلك، كما لا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور ولا الأحياء ولا الأموات.

ولا شك أنهم درجات عند المولى عز وجل فدرجات الذين اتبعوا رضوان الله ليست كدرجة الذين رجعوا بسخط من الله وغضب. وقد أبانت الآية التي جاءت بعد ذلك عن الطريق الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام وهو أنه سبحانه مَنَّ على المؤمنين بأن بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويطهرهم من رجس الكفر ويهديهم إلى طريق الرشاد ويعلمهم الكتاب والحكمة ويرسم لهم منهج حياتهم: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

فهذا المنهج الذي يجب على المؤمن اتباعه يستمد أصوله من الكتاب والحكمة (أي من القرآن والسنة) ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وينجيهم من الضلال المبين.

ولهذا فقد كان من أوامر هذا المنهج أمر الله عباده المؤمنين بأن يؤمنوا بهذا الكتاب. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء].

كما لا يفوتنا أن نتأمل قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ فمرة أخرى يأمر هذا المنهج المؤمنين بأن يؤمنوا بالله والرسول، والنور الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن. وقد عبرت الآية عن القرآن بلفظ النور، ليكون لذلك دلالته على أن القرآن نور ومن يتبع هذا النور فهو على نور من ربه، والذي يتبع هذا النور فهو في ظلمات ليس بخارج منها.

ثم انظر إلى قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وانظر كذلك إلى قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام] فالذي لا يتبع هذا القرآن فهو ليس فقط في الظلمات ليس بخارج منها، بل هو كذلك ضمن الأموات. وقد كان من قبل ميتًا رغم كونه على قيد الحياة يتمتع ويأكل ويحيا ولكن كما تحيا الأنعام والنار مثوى لهم.

إن هؤلاء الذين لا يتبعون هذا المنهج هم ومن في القبور سواء، رغم كونهم فوق سطح الأرض أحياء. ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر].

ولا تنسى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فمن أراد الله واليوم الآخر والحياة الحقيقية فعليه بهذا القرآن الذي يرسم له منهج حياته.

انظر إلى الآية التي جاءت بعد آية: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن] تقول الآية التي بعدها: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ إن التزام المؤمن في حركته وسلوكه واتباعه ما يرضى ربه هو دستوره الإيماني الذي ينتهي به إلى طريق السلام والخير والفوز والوئام: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾. فلمن الهداية إذا إلى سبل السلام؟ ولمن الهداية إلى النور بعد الظلام؟ إنها لمن اتبع رضوان الله بالتزام منهجه الذي أنزله على المصطفى ﷺ.

الدليل من السنة على أن الإيمان بالله منهج حياة:

ورد في الكتاب – وفي مواضع تفوق الحصر – ما يقوم به الدليل على أن الإيمان بالله منهج حياة. وقد اكتفينا ببعض الآيات التي تقدم ذكرها للتأكيد على هذه القاعدة.

ولا تقل السنة عن القرآن في هذا المعنى – وكلاهما وحي من عند الله – في التأكيد على هذه القاعدة الأصولية، نكتفي بأن نجتزئ من السنة ما يلي:

١- يقول ﷺ **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**.

٢- وعنه ﷺ قال: **«إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الفراش والدواب يقعن فيها فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيها»** أي تقعون فيها رواه الشيخان والترمذي.

٣- وعن النبي ﷺ قال: **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله، قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»**.

والشاهد من كل هذه الأحاديث ومثلها كثير جدًا ورد في غير موضع من السنة أن رسول الله ﷺ جاء بمنهج للمؤمنين به (افعل ولا تفعل) وهذا المنهج يتوجب على المؤمن الحق أن يتبعه وينقاد به في كافة سلوكه وحركة حياته. وأن هذا المنهج يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وماله وولده والناس أجمعين. هذا لمن أراد الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا. هذا لمن أراد أن يتحقق موعود الله له وهو الجنة، أما من أراد غير ذلك، فالهلاك موعده ولا يلومن إلا نفسه.

تطبيقات قاعدة (الإيمان بالله منهج حياة) في القرآن:

ورد في القرآن، كما ورد في السنة، وفي مواطن كثيرة منهما، ما يقوم به البرهان والبيان على أن الإيمان بالله منهج حياة على نحو ما سبق القول في ذلك.

«بمعنى أن المؤمن الحق هو الذي يضبط حركة حياته وفق منهج إيمانه (افعل ولا تفعل)».

وقد اجتزأنا من القرآن بعضًا من فيض تأكيدًا لهذا المعنى، كما اجتزأنا من السنة النذر القليل من فيضها.

وهنا سوف نشير إلى جزء قليل من تطبيقات هذه القاعدة، لكي نزداد فهماً لها، وعلماً بها، وذلك في مجالي العبادات والمعاملات.

تطبيقات هذه القاعدة في مجال العبادات:

إن فهم هذه القاعدة في محيط العبادات من الوضوح بمكان، فالقاعدة هنا لا تحتاج إلى توضيح، ولا لبس فيها ولا غموض فجميع النصوص القرآنية التي تأمر المؤمنين بالطاعة تعتبر تطبيقات صريحة وواضحة لهذه القاعدة، مثل قوله تعالى في حق المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة].

ويقاس على ذلك جميع الآيات القرآنية الآمرة بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. ولا شك في وضوح هذه الآيات ووجودها منتشرة بين آيات الكتاب بشكل يتفوق على الحصر. وكلها يعتبر تطبيقات لهذه القاعدة.

أما تطبيقاتها في مجال المعاملات والسلوك فهو الذي سوف نعرض له بشيء من التفصيل على الوجه التالي.

تطبيقات القاعدة في محيط المعاملات والسلوك:

هي أيضًا كثيرة في القرآن ولكن سنكتفي ببعضها:

* أولاً: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء].

هذه الآية ما هي إلا حلقة في سلسلة التربية المنهجية التي تولتها يد الرعاية الإلهية لإخراج النفس البشرية من سفوح الجاهلية والعروج بها إلى المرتقى الصاعد شطر القمة الشامخة.

إنها تمثل حلقة من المنهج الثابت المطرد الذي يضع العلاج الشافي للنفس البشرية الموصوف من قبل صانع هذه النفس وبارئها، والعليم بضروراتها وأشواقها ومقدراتها وطاقاتها، والخبير بدروبها ومنحنياتها، والبصير بطبيعتها وحقيقتها.

إنها نداء للذين آمنوا بصفتهم الجديدة، وهي صفة فريدة تنشئوا بها نشأة أخرى، وولدوا بها ميلادًا جديدًا. إنها صفة تليق بالمهمة الكبيرة المنوطة بهم، والأمانة الكبرى الموكولة إليهم، أمانة القوامة على البشرية والحكم بين الناس بالعدل.

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ...﴿١٣٥﴾﴾[النساء]- القسط على إطلاقه في كل حال وفي كل مجال – القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض، ويكفل العدل بين الناس والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين. وهنا يتساوى عند الله المسلمون وغير المسلمين – كما رأينا في قصة اليهودي الذي نسب إليه بعض الأنصار تهمة سرقة الدرع زورًا وبهتانًا، ونزل القرآن يلوم هؤلاء وينصر اليهودي، ويتساوى الأقارب والأباعد والأصدقاء والأعداء والأغنياء والفقراء.

كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، حسبة لله، وتعاملاً مباشرًا مع الله لا لحساب أحد من المشهود لهم أو المشهود عليهم، ولا لمصلحة فرد أو جماعة أو أمة، ولكن شهادة لله تعاملاً مع الله وتجردًا من كل ميل، ومن كل هوى، ومن كل مصلحة، ومن كل اعتبار.

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ...﴿١٣٥﴾﴾[النساء] وهنا تجنيد للنفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا، وهي محاولة شاقة أشق من نطقها باللسان ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل. إن مزاولتها عمليًا شيء آخر غير إدراكها بالعقل، ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة بهذه التجربة الشاقة، لأنها لابد أن توجد وتقوم، ولابد أن يقوم بها أناس من البشر.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[النساء] والهوى صنوف شتى ذكر بعضها، حب الذات هوى، وحب الوالدين والأقربين هوى، والعطف على الفقير في موضع الشهادة هوى، ومجاملة الغني في الشهادة هوى، ومضارته هوى، والتعصب للعشيرة والقبيلة والدولة والوطن هوى، والتعصب ضد الأعداء في موطن الشهادة والحكم هوى. فهذه الأشياء جميعًا، وغيرها يجب عدم التأثر بها في موطن الشهادة والحكم ولا ينبغي العدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها بأي حال من الأحوال.

﴿...وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ إنها خاصية فريدة تليق بالجماعة المؤمنة وبالأمانة الكبرى المنوطة بهم... أمانة العدل بين الناس والإسلام حينما دفع نفوس المؤمنين إلى هذه الذروة التي تشهد بها التجربة والواقع والتاريخ إنما كان ينشئ

معجزة حقيقية في عالم البشر... معجزة لا تقع إلا في ظل هذا المنهج القويم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

* ثانيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

سبق هذه الآية قول الحق في ذات السورة: ﴿... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ...﴿٢﴾﴾[المائدة].

وكان المقصود من هذه الآية توجيه الخطاب إلى المؤمنين الذين تعاقدوا معه سبحانه أن يفوا بالعقود – وذلك في فترة الأمان في الأشهر الحرم – بأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الكبير الذي ناطه بهم... دور القوامة على البشرية دون تأثر بالمشاعر الشخصية والعواطف الذاتية، والملابسات العارضة في الحياة، وذلك في هذه المنطقة التي يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى، وأن يروعها العدوان. إنه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت الحرام استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام.

فالآية تدعو الذين آمنوا ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام في عام الحديبية وقبله كذلك، مهما خلف هذا في قلوب المؤمنين الكراهية والجروح والبغض للذين صدوهم عن المسجد الحرام. إنها القمة في ضبط النفس، وسماحة القلب، ولكنها السماحة التي تليق بخير أمة أخرجت للناس أسند الله إليها القوامة على البشرية وقيادتها وهدايتها إلى أعلى مدارج الفضل والكمال، وأن تسبح بها في هذا الأفق السامي الوضيء.

إنها تبعة القيادة والريادة والشهادة على الناس... التبعة التي يجب فيها على المؤمنين أن ينسوا ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجًا إسلاميًا فريدًا في دنيا الناس خليقًا بأن يشار إليه بالبنان كالنموذج الذي قدمه جيل الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين. هذا الجيل الذي قدم للإسلام شهادة طيبة جذبت الناس إليه وحببتهم فيه.

إن تربية المسلمين بالمنهج الرباني قادت إلى ترويض النفوس على الانقياد لهذه المشاعر القوية والاعتياد على هذا السلوك الكريم. كان المنهج العربي للسلوك هو «انصر أخاك ظالمًا

أو مظلوما» هذا المنهج كان ترجمة لحمية الجاهلية والنعرة العصبية. وكان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى، وذلك طبيعي في بيئة لا تستمد أصولها ولا أعرافها من منهج الله، وميزان الله. ثم جاء الإسلام لتربية المسلمين بهذا المنهج الرباني الذي أحل قوله تعالى: ﴿ ...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ...﴿٢﴾ ﴾[المائدة] محل المبدأ الجاهلي «انصر أخاك ظالمًا أو مظلوما».

جاء هذا المنهج لربط القلوب بالله، وربط القيم والأخلاق بميزان الله جل في علاه فأخرج العرب من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، وانتشلهم من نعرة الجاهلية فأخرج العرب من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، وانتشلهم من نعرة الجاهلية وحميتها إلى وضاءة الإسلام. وولد الإنسان من جديد... الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله.

وإذا كانت آية: ﴿ ...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ ...﴿٢﴾ ﴾[المائدة] توجه خطابها إلى الذين آمنوا ألا يعتدوا على من صدوهم عن المسجد الحرام متأثرين بالكراهية لهم والبغض إليهم، بسبب هذا الصدد. فقد جاءت آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]. عامة في ألفاظها مطلقة المعنى غير مقيدة بخصوصية السبب لتوجه نداءها للذين آمنوا، ليحفظوا الميثاق الذي واثق الله به المؤمنين، وهو القوامة على البشرية بالعدل... العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه مع الحب والكره، ولا يتأثر بالقرابة أو الهوى أو المصلحة ولا المودة ولا الشنآن بأي حال من الأحوال... العدل المطلق بمنجاة من جميع العوامل والمؤثرات والاعتبارات واستشعار رقابة الله وعلمه سبحانه بخفايا الصدور.

إن النفس البشرية لا يمكنها الوصول إلى هذا المرتقى، إلا عندما يكون تعاملها مع الله مباشرة... حين تقوم لله سبحانه متجردة عن كل ما عداه، وحين تستشعر تقواه، وإن عينه سبحانه على خفايا الضمير وذات الصدور. فليس هناك أي اعتبار من اعتبارات الأرض يمكن أن ترتفع بالنفس البشرية إلى هذا الأفق، إلا القيام لله وحده والتعامل معه سبحانه مباشرة: ﴿ ...كُونُواْ قَوَّٰمِينَ ...﴿٨﴾ ﴾[المائدة].

وكذلك لا توجد عقيدة أو نظام من نظم الأرض يكفل هذا العدل المطلق للأعداء المشنوئين كما يكفله لهم هذا الدين حين يناشد المؤمنين أن يقوموا لله في هذا الأمر وأن يتعاملوا معه متجردين من أي اعتبار.

وبهذه المقدمات كان هذا الدين جديرًا بأن يكون الدين العالمي الأخير للإنسانية جميعًا، حيث يتكفل نظامه للناس جميعًا (سواء الذين يدينون به أو لا يدينون) أن ينعموا في ظله بالعدل، وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه قوامين به لله، ويتعاملون مع ربهم مباشرة مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن. إنها الفريضة على الأمة التي أسند الله إليها مهمة القوامة على البشرية مهما كلفها ذلك من جهاد ومشقة.

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة، وأدت مهامها يوم أن استقامت على الإسلام، ولم تكن هذه في حياة هذه الأمة مجرد وصايا أو مثل عليا، بل كانت واقعًا يجري على الأرض في حياتها اليومية... واقعًا لم تعرف البشرية مثله من قبل، ولا من بعد، إلا في هذه الحقبة الإسلامية المنيرة. والأمثلة التي عرفها تاريخ هذه الحقبة كثيرة مستفيضة تشهد كلها بأن هذه المقدمات قد استحالت في حياة هذه الأمة إلى منهج حياة وطابع حياة.

العدل في ميزان الإسلام والعدل في ميزان الليبراليين:

أريد أن أذكر أنه كلما ذكر الليبراليون كان المقصود بهم في (نظر الكاتب) أولئك المسلمين الذين يدينون بدين الإسلام ويقيمون الصلاة وسائر الشعائر والعبادات، ولكنهم يعزلون الدين عن السياسة ويحصرونه في المساجد وقد سموا كذلك بأنهم غير مقيدين بشريعة الإسلام وهم بصدد رسم سياسات الشأن العام، ذلك أن هذا الشأن محرّر من قيود وثوابت هذه الشريعة.

وإلى هؤلاء يوجه الكاتب إليهم هذا السؤال. أين العدل الذي ينادون به خارج الإسلام من هذا العدل في نظر الإسلام؟

لقد أوضحت أن الإسلام يفرض على المسلمين أن ينهضوا بمهمة العدل المطلق المتجرد من اعتبارات الكراهية والمودة. فهم يتعاملون في هذا الأمر مع ربهم مباشرة قوامين له بالقسط، بصرف النظر عن أي اعتبار يستوى في ذلك الأعداء والأصدقاء. المهم أن تكون القوامة لله على النحو سالف البيان.

وقد ذكرنا من قبل أن النفس البشرية لا يمكنها التحليق في هذه الآفاق العالية في القمة الشامخة، إلا في ظل هذا المنهج القويم العظيم. ولاشك في عجز أي منهج من مناهج البشر عن الوثوب إلى هذا المرتقى الذي ليس له على سطح الأرض مثال، أو سابقة، ولم تسبق إليه قوة في العالمين.

انظر إلى ممارسات الإرهاب الرسمي لدولة إسرائيل في حق الفلسطينيين أصحاب الأرض، وهم أصحاب الحق. ثم انظر مرة أخرى للولايات المتحدة الأمريكية، وهي تعين وتساند إسرائيل على هذه الممارسات الظالمة، وانظر كذلك لموقف أمريكا واستعمالها لحق الفيتو لعدم إدانة إسرائيل في مجلس الأمن، وذلك في مذابح جنين، وصابرة وشاتيلا، وغيرهما مما تمارسه ضد شعب فلسطين الأعزل، ثم انظر إلى هذه القوى العظمى (أمريكا وإسرائيل) وهي تدَّعي العدل باعتبارهما من أعظم قوى العالم رعاية للديمقراطية. انظر إلى هذا العدل في المفهوم الديمقراطي، ثم انظر إليه في المنهج الإسلامي ليتجسد لك الفارق الكبير – لو صح جدلاً أن توجد هناك مقارنة أصلاً.

إن هؤلاء الليبراليين الذين يعزلون الإسلام عن الشأن العام إنهم يحرمون البشرية من أن تنعم بنعمة العدل الحقيقي الذي لا يتحقق إلا في ظل الإسلام، ويروجون للعدل في المفهوم الديمقراطي أن يسود برغم ما فيه من جور وقصور.

أين العدل في النظام العالمي الجديد؟ وقد ضربنا به المثل في ممارسات إسرائيل ووقوف أمريكا من خلفها ضد شعب فلسطين الأعزل الذي تمتهن كرامته، وتغتصب أرضه، ويعذب أبناؤه لا لشيء إلا لضعفه. ولا يقدح في ذلك كونه صاحب الحق، وصاحب الأرض. إن هذه الممارسات الظالمة منطقية بمفهوم العدل في النظم الديمقراطية الحديثة. إنه عدل لا ينصف الضعيف، ولا ينصف العدو، ولا ينصف صاحب الحق، ولكنه عدل ينصف القوي والصديق، ولو كان ظالمًا. هذا هو العدل في منطق النظام العالمي الجديد وفي نظر ومفهوم أعظم القوى السياسية رعاية للأنظمة الديمقراطية.

أين هذا العدل في نظر النظام العالمي الجديد من العدل في نظر الإسلام؟

عندما نطل من هذه القمة العالية على الجاهلية التي ينادي بها الليبراليون في كل عصورها وديارها بما في ذلك جاهلية العصر الحديث التي تصر على عزل الدين عن ميدان

السياسة بفضل مساعي هؤلاء الليبراليين ندرك المدى الكبير بين منهج من صنع الله للبشر، ومنهج من صنع الناس للناس.

إن الناس قد يعرفون مبادئ ويهتفون بها، ولكن هذا شيء وتحققها في عالم الواقع شيء آخر. وشيء طبيعي ألا يتحقق في الواقع تلك المبادئ التي يهتف بها الناس للناس.

فليس المهم أن يُدْعى الناس إلى المبادئ، ولكنَّ المهم هو من يَدْعُوهم إليها... المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة... المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر. ربما يهتف الهاتفون بالعدل والتطهر والسماحة والحب والإيثار والتضحية، ولكن هتافهم لا يهز الضمائر ولا يفرض نفسه على القلوب، لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان. ليس المهم هو الكلام، ولكن المهم هو منْ وراء الكلام.

قد يسمع الناس القيم والمبادئ والشعارات من أناس مثلهم مجردة من سلطان الله، ولكن ما أثرها؟ أن فطرتهم تدرك أنها من أناس مثلهم تتسم بكل ما يتسم به البشر من قصور وهوى وعجز. ومن ثم يتلقاها الناس على هذا الأساس فلا يكون لها على فطرتهم من سبيل، ولا تهتز لها ضمائرهم ولا يكون لها من تأثير إلا القليل.

إن ما ذهب إليه الليبراليون يقوم به أعظم خسارة تلحق بالعدل الاجتماعي عندما يستبدلون بسلطان الله على الضمائر والقلوب سلطان الناس على الناس أعني في الشأن السياسي العام.

لابد إذن من نظام للحياة كلها وفق منهج الله. وفي ظل هذا المنهج ينفذ الدين وصاياه ينفذها في الواقع الفعلي على الأرض.

هذا هو الدين في المفهوم الإسلامي دون سواه... الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة. وحين تحول الدين إلى مجرد وصايا على المنابر، ومجرد شعائر في المساجد وتخلى عن نظام الحياة لم يعد للدين وجود في الحياة.

* ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء].

لقد انتشل الإسلام الجماعة المسلمة من وهدة الجاهلية التي كانت تهيم فيها، وارتفع بها إلى المرتقى العالي في القمة الشاهقة فشهد العالم ميلاد أمة جديدة تملك من المقومات ما يجعلها خليقة – بعد اكتمال نشأتها – بأن يسلمها قيادة البشرية، ويجدد لها دورها الضخم في هذه القيادة. ومن بين عوامل هذا البناء الضخم تطهير ضمائر هذه الجماعة وتطهير جو المجتمع التي تعيش فيه ورفع المستوى الخلقي والنفسي. وعندما بلغت الجماعة هذا المستوى، وتفوقت في أخلاقها الفردية والجماعية بقدر تفوقها في معتقداتها على أهل الأرض جميعًا، وقتئذ صنع الله بها ما قدر أن يصنعه، وأقامها حارسة لدينه ومنهجه، وقائدة للبشرية الضَّالة إلى النور والهدى. وعندما تفوقت في هذه الخصائص على أهل الأرض كانت ريادتها للإنسانية أمرًا طبيعيًا وفطريًا وقائمًا على أساس صحيح ومن هذا الوضع الممتاز تفوقت كذلك في العلم والحضارة والاقتصاد والسياسة وكان هذا التفوق الأخير ثمرة لتفوق الأول في المستوى الاعتقادي والأخلاقي وتلك هي سنة الله في الأفراد والجماعات.

وجزء من هذا التطهير للنفس والجماعة تشير إليه الآيتان سالفتا البيان.

والجهر بالسوء من القول – في أية صورة من الصور – سهل على اللسان ما لم يكن هناك تحرج في الضمير، وتقوى من الله. ولا شك أن شيوع القول السيئ يترك أثره العميق في ضمير الجماعة، ويخرب الثقة المتبادلة فيها فيصور للناس أن الشر قد صار غالبًا وكثيرًا ما يزين هذا لمن عندهم استعداد كامن في نفوسهم للسوء (ولكنهم يتحرجون منه) أن يفعلوه، لأن السوء صار طابع المجتمع فلا تحرج إذن ولا تقية وهم ليسوا بأول من يفعل ذلك السوء. وكثيرًا ما يذهب طول الألفة ببشاعة السوء. فالإنسان قد يستبشع السوء أول مرة بشدة حتى إذا تكرر وقوعه أو تكرر ذكره خفت حدة استبشاعه والاشمئزاز منه. وأصبح من اليسير على النفوس أن تسمع بل وأن ترى ومن ثم لا تثور ضد المنكر.

ذلك أن المجتمع شديد الحساسية وهو في حاجة إلى آداب تتفق مع هذه الحساسية. ورب كلمة عابرة لا يحسب قائلها حسابًا لما وراءها، ورب شائعة عابرة لم يرد قائلها إلا فردًا بذاته من الناس، ولكن هذه وتلك تترك في نفسية المجتمع وفي أخلاقه وتقاليده وأجوائه آثارًا مدمرة وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة. هذا فضلاً عما يقع من ظلم على من يتهمون بالسوء أو يشاع عنهم – وقد يكونون منه أبرياء – ولكن قالة السوء

حين تنتشر وحين يكون الجهر بها هينًا مألوفًا فإن البريء قد يتقول عليه من المسيء فيختلط البر بالفاجر بلا تحرج من فرية أو اتهام، ويسقط الحياء النفسي والاجتماعي الذي يمنع الألسنة من النطق بما هو قبيح ويعصم الكثيرين من الإقدام على السوء.

إن الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر باتهامات فردية – سبًا وقذفًا – وينتهي بانحلال اجتماعي وفوضى أخلاقية تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفرادًا وجماعات، وتنعدم فيها الثقة بين الناس بعضهم لبعض وقد شاعت الاتهامات ولاكتها الألسنة بلا تحرج.

من أجل ذلك كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء، وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم في حدود ما وقع عليه منه من ظلم.

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ... ﴿١٤٨﴾ ﴾[النساء] ليثأر المجتمع للمظلوم، وليضرب على يد الظالم وليخشى الظالم عاقبة فعله فيتردد في تكراره. والجهر بالسوء هنا يكون محدد المصدر أي من الشخص الذي وقع عليه الظلم، ومحدد السبب فهو الظلم المعين الذي يصفه المظلوم موجهًا إلى شخص بذاته هو الذي صدر عنه الظلم. هنا يكون لهذا الجهر بالسوء ما يبرره، ويكون العدل هو الهدف وليس مطلق التشهير. ذلك أن الإسلام يحمي سمعة الناس ما لم يظلموا فإذا ظلموا سقطت عنهم هذه الحماية، وصدر الإذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه. وهذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن قول السوء.

هكذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل الذي لا يطيق معه الظلم، وحرصه على الأخلاق التي لا يطبق معها خدشًا للحياء النفسي والاجتماعي.

ثم لا يقف السياق القرآني عند الحد السلبي في الكف عن الجهر بالسوء، إنما يدعو إلى الخير الإيجابي عامة، ويدعو إلى العفو عن السوء ملوحًا بصفة الله سبحانه في العفو وهو قادر على الأخذ، ليتخلق المؤمنون بأخلاق الله سبحانه فيما يملكون.

﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء].

وبهذا يرتفع المنهج التربوي بالنفس المؤمنة والجماعة المسلمة درجة أخرى. فهو في أول درجة يحدثهم عن كراهية الله للجهر بالسوء من القول، ويرخص لمن وقع عليه الظلم بأن يجهر بقالة السوء في ظالمه. وفي الدرجة الثانية يرتفع بهم جميعًا إلى فعل الخير، ويرتفع بالنفس التي ظُلِمت – وهي تملك أن تنتصف لنفسها بالجهر بالسوء ممن وقع منه الظلم – أن تعفو وتصفح عن مقدرة فلا عفو بغير مقدرة فترتفع عن الرغبة في الثأر إلى الرغبة في السماحة، وهي أرفع وأصفى.

عندئذ يشيع الخير بين المسلمين إذا أبدوه، ويؤدي دوره في تربية النفوس وتزكيتها إذا أخفوه، فالخير طيب في السر طيب في العلن. وعندئذ يشيع العفو بين الناس فلا يكون للجهر بالسوء مجال على أن يكون عفو القادر الذي يصدر عن سماحة النفس لا عن مذلة العجز، وعلى أن يكون تخلقًا بأخلاق الله الذي يقدر ويعفو.

فهل تنبهت جماعة الليبراليين إلى هذا الأدب الذي يخاطب به الله الجماعة المسلمة؟ وهل فطنوا إلى الجرم الذي ارتكبوه في حق البشرية عندما حرموها من هذا الأدب أن ينتشر فيسود ليحكم جماعة المسلمين؟

* رابعًا: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى].

هذه الآية تقرر صفة أساسية في جماعة المسلمين، وهي التي تثار من البغي، وعدم الخضوع للظلم. وهذه الصفة تستقيم مع جماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتهيمن على البشرية بالحق والعدل وهي عزيزة بالله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾ ﴾ فكان طبيعيًا أن تنتصر هذه الجماعة على الظلم وتدفع العدوان.

ولكن الانتصار من البغي ودفع الظلم يكون في حدود: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ...﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى].

فهذا هو الأصل في الجزاء مقابلة السيئة بالسيئة، كي لا يطغى الشر ويتبجح، عندما لا يجد زاجرًا يكفه عن الإفساد في الأرض، فيمضي وهو آمن مطمئن، ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله، وإصلاح غيظ النفس: ﴿ ...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ... ﴿٤٠﴾ ﴾ والعفو لا يكون إلا مع القدرة على مقابلة السيئة بالسيئة. فهنا يكون للعفو وزنه وأثره في إصلاح المعتدي والمسامح. فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة، ولم يأت ضعفًا، فإنه يستحي ويخجل، ويشعر بأن خصمه الذي سامحه هو الأعلى. والقوى المسامح تعلو نفسه وتصفو. فالعفو هنا يكون خيرًا لهذا وذلك، وليس الأمر كذلك عند العجز والضعف. ولا محل لذكر العفو عند العجز فليس له ثمة وجود. وهو شر يطمع المعتدي، ويذل المعتدى عليه، وينشر في الأرض الفساد.

ويؤكد هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ فالذي ينتصر بعد ظلمه، ويقابل السيئة بالسيئة، ولا يعتدي ليس عليه جناح وهو يزاول حقه المشروع، وما لأحد عليه من سبيل. ولكن السبيل على الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق. فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يضرب الناس على يديه ليكف عن ظلمه، ولا تصلحَ الأرض وفيها باغ لا يصده الناس عن بغيه. وقد توعد الله الظالم الباغي بالعذاب الأليم، ولكن على الناس كذلك أن يضربوا على يديه ويمنعوا عليه الطريق.

ثم تعود الآيات إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية وعند القدرة على الانتصار من العدوان ودفع الظلم، وعندما يكون الصبر استعلاء لا استحذاء وذلاً: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى].

* خامسًا: قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾[الأنعام].

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...(١٥١) ﴾ [الأنعام] تأمل قوله تعالوا، ثم اربطها بقائمة المحرمات التي جاءت بعدها، لترى أن الارتفاع والسمو والترفع (قل تعالوا) مرتبط بترك المؤمن المخاطب بهذه الآيات بهذه المحرمات التي يأتي في مقدمتها (ألا تشركوا به شيئًا).

هذا هو المحرم الأكبر عدم الشرك بالله، وتلك هي قاعدة الانطلاق (العقيدة والعبادة والشريعة والمعاملات). ذلك أن إفراد الله سبحانه بالربوبية والعبودية والحكم والقوامة والتشريع من أهم ما يجب على المؤمن أن يؤمن به، ويتجرد له، فلا يدعو مع الله إلهًا آخر ولا يخشى إلا هو، ولا يرجو إلا منه.

هذا التصور عند الإنسان المؤمن تجد له شديد الأثر في سلوكياته وحركة حياته في المكان الذي يعمل، فإن كان أميرًا أو حاكمًا أو رئيسًا تجده يتقي الله في رعيته فلا يخشى فيها أحدًا إلا الله ولا يرجو إلا من الله ولا يطمع في سواه، ولا يتخذ من دون الله وليًا فلا رجاء له في أي قوة أخرى مهما كان نفوذها، ولا يخشاها مهما تعاظم أمرها، فلا يخطب ودها، ولا يطلب رضاءها، ذلك أن إيمانه بالله شديد، وأن ما دون الله خلق مثله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله العزيز الحميد، فلا يجامل أحدًا مهما كان على حساب عقيدته ولا عبادته ولا رعيته. ولا عجب فهو مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

هذا هو شأنه في موقعه إذا كان رئيسًا أو حاكمًا، وهو كذلك في أي موقع، فهو راع ومسئول عن رعيته، فلا يخشى أحدًا إلا الله، ولا يرجو إلا من الله. ولا عجب فهو يؤمن بأن الله قد تفرد بالربوبية واستأثر بالقوامة والحاكمية: ﴿ ...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...(١٥١) ﴾[الأنعام]. إنها رابطة الأسرة بأجيالها المتعاقبة تأتي بعد الرابطة في الله ويربطها سبحانه وتعالى بربوبيته المطلقة فيوصي الأبناء بالآباء والآباء بالأبناء، وذلك بعد أن أفرد نفسه سبحانه بالقوامة والألوهية المطلقة: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي

ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ...﴿١٥﴾﴾[لقمان] ثم بعد ذلك يطمئن الله الآباء على رزق الأولاد فلا يعمد الوالد إلى قتل ولده خشية الفقر. وقوله تعالى (من إملاق) يعني أن الفقر هنا موجود بالفعل، وإذا كان الفقر موجودًا بالفعل فإن الله يطمئن الوالد على رزقه هو أولاً قبل طمأنته على رزق ولده فيقول (نحن نرزقكم وإياهم).

﴿...وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ...﴿١٥١﴾﴾[الأنعام] بعد التوصية بالأسرة وصى الله بالقاعدة التي تقوم عليها – كما يقوم عليها المجتمع كله – وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة فكان النهي عن الفواحش ظاهرها وخافيها. ولا يمكن لأسرة أن تقوم، ولا لمجتمع أن يستقيم في أوحال الفاحشة ما ظهر منها وما بطن﴿...وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ...﴿١٥١﴾﴾وبعد النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر يأتي النهي عن قتل النفس بصفة عامة تأكيدًا لقوله تعالى:﴿...أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ...﴿٣٢﴾﴾[المائدة].

وبذلك يكون الله قد كفل حرمة النفس ابتداء.

ولا شك أن هذه الآية يكون لها تأثيرها على منهج المؤمن إذا كان في موقع المسئولية الأمر الذي يجعله يتحرى كل حرص واهتمام قبل العدوان على النفس، فلا يقتص من نفس إلا بنفس.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ...﴿٣٢﴾﴾[الأنعام].

فعلى من يوجد يتيم في رعايته وكنفه أن يحرص على ماله كحرصه على مال نفسه، وأن يحافظ عليه بصيانته وتنميته واستثماره، وألا يرده إليه إلا بعد أن يأنس فيه الرشد والقدرة على إدارة المال.

﴿...وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ...﴿١٥٢﴾﴾[الأنعام].

وهذه في المبادلات التجارية بين الناس. وهذه المعاملات يربطها السياق بالعقيدة، ذلك أن الارتباط بينهما من الأمور المستقرة، وأن الله هو الذي يأمر بها. ومن هنا فهي مرتبطة بقضية الألوهية والعبودية وحده لا شريك له.

ولقد كان من الأخطاء الشائعة في الجاهلية الأولى – ولا يزال خطأ شائعًا حتى اليوم – الفصل بين العقيدة والعبادة من ناحية والشرائع والمعاملات من ناحية أخرى.

يجسد هذا المعنى قوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ... (٨٧) ﴾ [هود].

﴿ ...وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... (١٥٢) ﴾[الأنعام].

سبق التعرض لتفسير هذه الآية بمناسبة تعقيبنا على قوله تعالى: : ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ... (١٣٥) ﴾ [النساء].

﴿ ...وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ... (١٥٢) ﴾[الأنعام]..

ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان المقول ضده ذا قربى. ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط، ومن عهد الله عدم المساس بمال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ومن عهده حرمة قتل النفس إلا بالحق، والعهد الأكبر عدم الشرك بالله.

وهذا كله يرسم طريق الله المستقيم.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام].

صفوة القول:

يتضح مما سبق – بما لا يدع مجالاً للمناقشة – أن هذه الآيات رسمت الطريق أمام الشرائع والمعاملات. فقوله ألا يشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، وإذا قلتم فاعدلوا، وبعهد الله أوفوا.

كل هذه الآيات لا يختلف أحد على أنها تعتبر بمثابة مواد ينص عليها الدستور الإسلامي في صلبه وهو ينظم العلاقة بين الراعي والرعية.

وإذا كانت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ أسقطت النظام الفاسد، تطالب بقيام مجتمع الطهارة والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية على أنقاض هذا النظام. وإذا كانت الثورة تطالب بوضع دستور يعبر عن أمانيها وأحلامها في العيش الكريم والحرية والعدالة الاجتماعية فليس هناك أمام الجمعية التأسيسية المنوط بها كتابة الدستور أفضل من هذه الآيات للنص عليها في الأبواب المناسبة منه.

ولكي يزداد الأمر وضوحًا نقول ما يلي:

(إذا كان الدستور هو الوثيقة القانونية التي تنظم العلاقة بين الراعي والرعية فإن أعظم ما تقوم عليه هذه العلاقة أن يتقي الراعي ربه في رعيته فلا يخشى فيها أحدًا إلا الله، ولا يرجو إلا رحمته. فهو (أي الراعي) لا يخطب ود رعيته، ولا يرجو رضاءهم على حساب شرع ربه. المهم أن يخلص العمل لله، ويصدق النية لله، ولا يخشى إلا هو ولا يطمع إلا فيه. وهذا لا يكون إلا بالسهر على رعاية الرعية، والقيام على مصالحهم رضاءً لله. وهنا سوف ينال حب رعيته وهيبتهم منه، ووقوفهم بجواره.

والراعي الذي يتقي الله في رعيته لا يقبل من أحدهم أن يعتدي على أخيه بغير حق. وإذا حدث عدوان من أحد الرعية على الآخر ثأر من الظالم ورد الحق للمظلوم. المهم أن الراعي يقوم بواجبه على أنه عبادة لربه وأن الله هو وحده المتفرد بالألوهية والطاعة والربوبية. وإذا تعامل الراعي مع الرعية من هذا المنطلق فسوف يصلح الراعي وتصلح الرعية ويعم الخير، وينتشر السلم، وتشرق الأرض بنور الإسلام.

فكيف نفصل ولا نتأثر بهذه الآيات البينات في حركة الحياة والشأن العام؟!

إن هذه الآيات البينات لم ينص عليها في هذا الكتاب، ولم تنزل أصلاً على رسول الإسلام ﷺ للحفظ، والتأمل، والتدبر،والإنصات إليها، وتلاوتها، والصلاة بها فحسب، ولكن للعمل بمحتواها والتأثر بها في كافة شئون الحياة سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا...إلخ.

المبحث السادس
الإيمان بالغيب

لا يخامر أحد من الشك أدناه، في أن الإيمان الصحيح لا يكتمل إلا بمقوماته التي سبق الحديث عنها في المباحث المتقدمة، ولا تقوم له قائمة في ضمير المؤمن، ولا يستقر في قلبه إلا تحت مظلة الإيمان بالغيب.

ماهية الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب في أبسط تعريفاته، هو الإيمان بما لا يدرك بالحواس. وأقصد بالحواس هنا العقل والحواس الخمس المعروفة والعلم. فكل ما يمكن إدراكه بالعقل أو بالعين أو السمع أو الشم أو الحس أو الذوق أو بالعلم التجريبي أو بالأجهزة العلمية الحديثة التي تمكن من رؤية ما لا يرى بالعين المجردة كل ذلك لا يمكن دخوله تحت دائرة الغيب. وبالتالي فإن الأشياء التي ترى بالعين المجردة أو الميكروبات والفيروسات التي ترى بالأجهزة العلمية الحديثة، وكذلك الأشياء التي ترى بالأشعة والتقنيات الحديثة سواء الموجودة حاليًا، أو ما سوف يكشف عنها النشاط العلمي في المستقبل لا يمكن دخول هذه الأشياء في مجال الغيب.

فالإيمان بالغيب إذن هو الإيمان بما لا يدرك بالحواس. وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه.

وقد جاء في ظلال القرآن[1] «إن الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد الحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي. ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وما وراء هذا الكون من قوة وتدبير. كما أنها نقلة بعيدة الأثر في حياته على الأرض. فليس من

---

(١) أ. سيد قطب. ظلال القرآن، المرجع السابق، ج١، ص ص٣٩، ٤٠.

يعيش في ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ويشعر بأن مداه في الزمان والمكان أوسع من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وإن وراء الكون ظاهرة وخافية حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها واستمد وجوده من وجودها حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام].

ومن ثم فإن أية محاولة تستهدف إدراك ما وراء الواقع المحسوس بالعقل محاولة فاشلة أولاً، وعابثة آخرًا. فاشلة أولاً لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال. وعابثة آخرًا لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تهيأ لهذه الوظيفة.

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية من التمزق والتبدد والانشغال بما لم تخلق له. ولم تذهب القدرة على الإحاطة به.

ومتى سلم العقل البشري بالبديهية الأولى. وهي أن المحدود لا يدرك المطلق لزمه التسليم بأن إدراكه للمطلق مستحيل.

ولكن عدم إدراك الإنسان للمجهول الذي يكمن فيما وراء الواقع المحسوس لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون. وإن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل. وأن يتلقى العلم في شأن الغيب من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة والذي يعلم السر وأخفى، وهو بكل شيء عليم.

هذا الاحترام لمنطق العقل، والتسليم بأنه غير مهيأ لرصد الغيب، وأن الغيب لا يدرك بالعقل، وإنما يدرك بالبصيرة. الإيمان بهذا هو من أبرز سمات المتقين الذين يؤمنون بالغيب.

ومن تطبيقات الإيمان بالغيب:

لا شك أن عرض بعض النماذج وصور الإيمان بالغيب يلقي ضوءًا أكثر وضوحًا على عملية الإيمان بالغيب، ويكشف عن المقصود منه بدقة متناهية.

فقوله تعالى في سورة البقرة في وصف المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾.

لقد سبق هذه الآية قوله تعالى في الآية رقم (٢) ما يفيد أن هذا الكتاب هدى للمتقين. وقبل الكلام في تطبيقات ونماذج الإيمان بالغيب فسوف نقدم لذلك تعقيبًا منا على قول الله في الآية رقم (٢) : ﴿ ...هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾.

فإذا كانت الهداية هي طبيعة وسمة وكينونة هذا الكتاب فلمن تكون هذه الهداية؟ إنها حكر على المتقين أصحاب القلوب التقية. والقلب التقي هو القلب المؤهل للانتفاع بهذا الكتاب. والتقوى هي التي تفتح مغاليق القلوب لهذا الكتاب ليؤدي دوره هناك. وهي التي تهيئ للقلب أن يلتقط وأن يتلقى ويستجيب. فمن أراد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو تستهويه غواية. وعندئذ ينفتح القرآن عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه منشرحًا منفتحًا متقيًا خائفًا وجلاً حساسًا مهيأ للتلقي.

ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أنه سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له «أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى! قال: فما عملت؟ شمرت واجتهدت قال: فذاك التقوى».

فها هي التقوى حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وحذر دائم، وخوف مستمر، وتوقع لأشواك الطريق، طريق الحياة الذي تنازعته أشواك المطامع والمطامح والرغائب والشهوات والمخاوف والهواجس، وأشواك الخوف الكاذب فيمن لا يملك نفعًا ولا ضرًا، والرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة وهو يدعى. وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف].

فالتقوى إذن محلها القلب الذي هو مصدر الإيمان بالغيب. وليس العقل كما سبق القول.

إقامة الصلاة أحد تطبيقات الإيمان بالغيب:

قدمنا أن العقل، وجميع الحواس، والعلم التجريبي لا يصلح أيهم لرصد المجال الغيبي. وإنما القلب هو الأداة التي تصلح لرصد هذا المجال. ولما كان القلب التقي الورع النقي هو مصدر الإيمان بالغيب. فقد كان من المناسب أن يأتي أهم تطبيقات الإيمان بالغيب – وهي إقامة المتقين للصلاة في أعقاب وصفهم، أي المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب. ذلك أن إقامة المتقين للصلاة، وإيتائهم الزكاة ليستا صفتين مستقلتين معطوفتين على صفة الإيمان بالغيب. بل هما تطبيقان من تطبيقات الإيمان بالغيب، ذلك أن إقامة الصلاة، والاتجاه بالعبادة لله وحده سبحانه، والارتفاع بها عن عبادة العباد، وعبادة الأشياء، والاتجاه بها إلى القوة المطلقة بغير حدود. هذا العمل لا يمكن أن يكون مصدره العقل ولا العلم. ولا يجد إلا في القلب التقي النقي مصدرًا له. فهذا العمل موكل إلى الإيمان بالغيب، وإلى القلب الذي يسجد لله وحده حقًا، ويتصل به على مدار الليل والنهار يستشعر أنه موصول السبب والمدد بواجد الوجود. ويحس بأنه أعلى من الخلق، لأنه موصول بخالق الخلق. كل هذا ينطلق من التصور والإيمان بأن هناك حقيقة أكبر وأشمل بكثير من هذا الكون الصغير المحدود. وأن هذه الحقيقة الكبرى تختفي خلف حقيقة أكبر هي الذات الإلهية التي هي مصدر وجود هذا الوجود الصغير والكبير، والتي إليها يتجه المتقون في صلاتهم ويدعونها رغبًا ورهبًا، وتضرعًا وخفية إيمانًا بالقلب وليس بالعقل.

إيتاء الزكاة أحد تطبيقات الإيمان بالغيب:

المؤمن الذي يؤدي زكاة ماله، ويقاس عليها الصدقة في سبيل الله لا ريب أنه يؤدي ذلك إيمانًا منه بأن الزكاة نماء لماله. إيمانًا منه بأنه ما نقص مال من صدقة، وأن هذه الصدقة تبارك له هذا المال وتحرسه، وتحفظه فضلاً عن كونها تنمية، وأن الله يضاعف الأجر والثواب على هذا القرض الذي يقرضه الله.

هذه البركة التي تحل بالمال المدفوع زكاته، والذي طهرته الصدقة. وهذا النماء الذي حل به، وهذا الأجر المضاعف على هذا القرض. كل هذا لا يمكن إثباته بالعلم ولا إدراكه بالعقل، ولا بأية حاسة من الحواس التي ركبها الله في الإنسان. وإنما سبيل الإدراك الوحيد لهذه الأشياء الغيبية الخارجة عن حدود عالم الحس هو الإيمان بالغيب الذي محله القلب.

وكذلك يدخل في مجال الإيمان بالغيب الإيمان بأن المال الذي هو في أيدي المؤمنين هو من رزق الله لهم، وليس من عند أنفسهم. وهذا المعنى لا يمكن إدراكه إلا بالقلب الذي هو مصدر الإيمان بالغيب. ولو كان إدراك هذا المعنى بمقاييس العقل والعلم التجريبي لانتهى هذا العقل والعلم إلى نتيجة مغايرة. وهي أن المال الذي في يد صاحبه من عند صاحبه لأنه هو الذي جاء به باجتهاده وسواعده حسبما يبدو له في ظاهر الأمر. ولكن التصور الإيماني الصحيح لحقيقة الوجود الإنساني ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وما وراء هذا الكون من قوة وتدبير لا يليق به التسليم بهذه النتيجة العقلانية العلمية التي تحصر الوجود الإنساني في هذا الحيز الصغير المحدود الذي تحيط به مدارك الحس الإنساني، بل تنطلق بهذا التصور إلى آفاق بعيدة المدى تخترق هذا العالم الصغير وهذا الحيز القليل المحدود. إن الذات الإلهية التي يستمد هذا الكون وهذا الوجود وجوده منها، ومن ثم يصير المال والرزق الذي في يد الناس هو من عند الله لا من عند أنفسهم. ونعمة الله لهم أنعم بها عليهم ولم يأتوه عن علم عندهم. وصدق الله القائل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ...(٥٣) ﴾ [النحل].

وإذا كان الإيمان بأن ما في أيدي الناس من مال ونعم أخرى هو من رزق الله لهم مسألة غيبية لا تدرك إلا عن طريق الإيمان بالغيب. فليس معنى ذلك إنكار كل قيمة للعقل والعلم والحواس في قضية الإيمان بالغيب، فبالعقل والحواس والعلم يدرك الجميع أن حبة القمح شارك في إيجادها ونبتها قوى وطاقات كونية من الأرض إلى الماء إلى الهواء إلى الشمس، وكل هذه الطاقات مسخرة من عند الله ولا حول للإنسان ولا قوة في تسخيرها وتذليلها. هذا المعنى يدرك بالعقل وسائر الحواس والعلم أن حبة القمح شارك في صنعها هذه القوى وتلك الطاقات، حيث إنها تدخل في حيز الوجود المحدود الذي يدرك بالحواس. أما أن الله هو الذي سخر هذه القوى والطاقات، وأنه الرزاق فهذا هو محل الغيب الذي لا يدرك إلا بالقلب المؤمن بالحقيقة الإلهية الكبرى التي تختفي خلف كل حقائق الوجود المحسوسة، وغير المحسوسة وراء جميع العوالم الصغيرة والكبيرة. ويقاس على حبة القمح خيط الكساء وقطرة الماء وسائر الأشياء.

الإيمان باليوم الآخر أحد تطبيقات الإيمان بالغيب:

اليقين باليوم الآخر هو الذي يميز بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، بمعنى الحيز الصغير المحدود الذي يدركه الحس – كما سبق القول – وبين من يعيش في الوجود المديد الرحيب الذي يتمرد على عالم الحس. هذا الإيمان بالآخرة هو الذي يفرق بين من يشعر أن حياته على الأرض تمثل كل ماله في هذا الوجود، وبين من يشعر أن حياته على الأرض إن هي إلا مرحلة ابتلاء واختبار تمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية وراء هذا الحيز الصغير المحدود.

وصدق الله إذ يقول: ﴿...وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].

هذا المعنى الذي ينبثق من الإيمان بأن الوجود الإنساني أكبر بكثير من هذا الوجود المادي المنظور المحدود هو مصدر الإيمان بالغيب وهو محل الإيمان بالغيب.

لماذا وصف الله الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة بقوله: ﴿... وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

وصفت الآية رقم (٥) من سورة البقرة المتقين بقولها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ فلماذا لم يقل الله أولئك هم الفائزون مثلاً أو القانتون أو الخاشعون؟ ولكن سبحانه قال أولئك هم المفلحون.

يجيب فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله على هذا السؤال قائلاً: المفلحون من مادة الفلاحة (أي فلاحة الأرض) ولعل مما يدرك بالحس، ويرى بالعين أن الفلاّح يضع الحبة في الأرض فتصبح حبات كثيرة. فحبة القمح مثلاً تصبح سنبلة تحتوي على عدد كبير من حبات القمح، وكذلك حبة الذرة، وبالمثل حبة الشعير والأرز وهكذا.

فالمفلحون إذن هم الذين يزرعون الحبة فتصبح حبات مضاعفة. وهذا ليس غيبًا ولكن هذا مما تشاهده العين ويدرك بالحواس.

فالمتقون الذين يؤمنون بالغيب، فيقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله (هم يفعلون ذلك إيمانًا منهم بالغيب) هؤلاء هم المفلحون الذين يشاهدون بكل الحواس أنهم يضعون الحبة التي تتحول إلى حبات مضاعفة.

ولكي يتحقق إيمان المتقين بالغيب، ويتأكد هذا الإيمان في قلوبهم أقام عليه الدليل من شيء محسوس وملموس ومشهود كي يكون إيمانهم بالغيب على بينة من الأمر وبصيرة وهدى.

نصر الله ورسله بالغيب من تطبيقات الإيمان بالغيب:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ ...﴿٩٤﴾ ﴾[المائدة].

ويقول تعالى: ﴿ ...وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد].

المبحث السابع
منظومة الدين والأخلاق

سوف نؤكد في هذا المبحث على القاعدة الإيمانية العقائدية والتي كرّسنا معظم الجهد من أجلها في هذا البحث، ألا وهي قاعدة وحدة الدين والسلوك، أي أن الدين والسلوك يجب النظر إليهما في عقيدة المؤمن على أنهما وحدة واحدة وكل لا يتجزأ لا ينفصل أحد جزئيه عن الآخر، فهما ركنان لا يقوم الدين إلا بهما مجتمعين، إذا تخلف الجزء سقط الكل.

فلا يصح للمؤمن أن يمارس أعمال العبادة والشعائر من صلوات وزكوات وحج وصيام...إلخ وهو مترد في أخلاقه، كما لا يمكن أن تكون أخلاقه معتبرة شرعًا إلا إذا كانت هذه الأخلاق تستمد جذورها من الدين والإيمان.

إذا كان هذا المبحث يهدف إلى تأكيد هذه القاعدة فما هو الجديد الذي سيأتي به هذا المبحث؟ وقد سبق تأكيد هذه القاعدة من قبل في المبحث الذي تناولناه تحت عنوان (الإطار الذي يدور منهج الإيمان في فلكه) أي المنهج وقلنا أنه يقوم على ركنين، هما الإيمان بالقلب وتصديق العمل لهذا الإيمان القلبي، وذلك على نحو ما فصلنا في هذا الشأن.

ولكن الجديد الذي سيأتي به هذا المبحث هو تأكيد هذه القاعدة على أساس النظر إليها من زاوية أخرى، وهي زاوية الربط بين الدين والأخلاق من ناحية الأجر على الدين.

الربط بين الإثابة على العبادة بقدر تأثيرها في الأخلاق:

والدين في مفهوم هذا البحث يقصد به العقيدة والعبادة وكل ما يتصل بعلاقة العبد بربه ويقصد بالأخلاق كل ما يتصل بالسلوك الإنساني من أخلاق ومعاملات في علاقة الناس فيما بينهم سواء كانوا أفرادًا أو جماعات أو دولاً.

وبتأمل أحكام هذا الدين وشريعته يتبين أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الطاعات إلا بمقدار تأثيرها في صلاح القلب، وتزكية النفس، وطهارة الجوارح والسلوك. ذلك أن الطاعة التي فرضها الله علينا لم تفرض لذاتها، ولكن فرضت لمنفعة تعود على النفس من ورائها. فإذا لم تتحقق هذه المنفعة من الطاعة، فإن هذه الطاعة ترد على صاحبها، ولا تقبل منه.

فالصلاة مثلاً افترضها الله علينا لا للصلاة في حد ذاتها ولكن لهدف يجنيه السلوك الإنساني منها، ويتحصل من ورائها. ويتمثل هذا الهدف في اجتناب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن والتواضع وخفض الجناح للمؤمنين وغيره من أمراض النفس.

وقد أبان الله عن الحكمة من الصلاة عندما أوجبها فقال تعالى: ﴿ ...وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]. فدل ذلك على أن هذه الشعيرة فرضت لحكمة يجنيها السلوك الإنساني من ورائها. وتتجسد هذه الحكمة في إصلاح النفس وتطهيرها من الرجس والفحشاء والمنكر.

ومن ثم يمكن القول بأن الصلاة لا تقبل إلا إذا أثمرت في إصلاح النفس، وتزكية القلب، وتهذيب السلوك والأخلاق.

سئل رسول الله ﷺ عن سيدة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، فقال ﷺ «لا خير فيها، وهي في النار».

قالوا: يا رسول الله إنها صوامة قوامة، فقال: لا خير فيها وهي في النار.

وهذا شيء طبيعي يتفق مع منطق هذا الدين القيم.

هذا الدين الذي لم يوجب علينا الشعائر والطاعات إلا لهدف يتحقق منها. ويتمثل هذا الهدف في إصلاح النفس البشرية من الآفات والأمراض التي تعاني منها.

ذلك أن الله تبارك وتعالى عندما خلق النفس البشرية خلقها خليطًا من الحق والباطل، والخير والشر: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس]، فالنفس البشرية مفطورة على الفجور والتقى، ولا شك أن شطرها الفاجر فيه أمراض كثيرة تعاني منها النفس مثل أمراض الكبر والعجب وحب النفس والشح والبخل وضعف النفس أمام رغائب النفس، إلى غير ذلك من هذه الأمراض.

وما فرضت هذه العبادات والشعائر إلا لصلاح هذه الأمراض وتحرير النفس من هذه الآفات. فكل شعيرة منها مسئولة عن علاج أمراض بعينها. بحيث تتعاون جميع العبادات والشعائر من أجل علاج كافة الأمراض، فالصلاة مثلاً شعيرة فرضها الله تعالى

لشفاء النفس من أمراض التعالي على الناس والكبرياء في الأرض بغير الحق قال ﷺ عن رب العزة: «**إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل بها على خلقي، وقطع الصلاة في ذكري، ورحم المسكين والأرملة وابن السبيل ورحم المصاب**».

فالصلاة – كما هو واضح من هذا الأثر – لا تقبل إلا إذا كان لها أثرها في علاج أمراض الكبر والتعالي.

وشعيرة الصيام منوط بها علاج أمراض ضعف النفس ورغائبها، ولكي تقبل هذه الطاعة يجب أن يتحقق الهدف منها في إصلاح النفس وقوة الإرادة.

قال ﷺ: «**ما لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» فيجب أن يكون الصوم لله إيمانًا واحتسابا حتى يترتب أثره في مغفرة الذنوب ولا يمكن أن يعد الصوم وإيمانًا واحتسابًا إلا إذا كان له دوره في علاج النفس من أمراضها.

وكذلك البخل مرض عضال من أمراض القلب، وما فرضت شعيرة الزكاة إلا لكي تؤدي دورها في علاج النفس من هذا المرض: ﴿...وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

والفرق شاسع بين النظرتين. فمن ينظر إلى العبادة أو الشعيرة على أنها غاية في ذاتها فلا يتحرى أن يكون سلوكه وخلقه حسنًا، ذلك أنه استحق الأجر والثواب على فعل الطاعة لمجرد فعلها فحسب بصرف النظر عن نوع السلوك الذي يمشي به في الناس بعد ذلك. فهو لا يتورع أن يغش في الميزان، وأن يأكل أموال الناس بالباطل، وأن يجترح السيئات. وهذا طبيعي مع من ينظر على الشعائر على أنها هدف وغاية في حد ذاتها. وهذا خطأ شائع، ومعتقد شائه لا يصح إلا في نظر أصحاب القلوب المريضة. نسأل الله لهم الهدى والتوبة والمغفرة.

أما أصحاب النظرة الأخرى الذين يرون أن الشعائر ليست غاية في ذاتها، وإنما هي أداة ووسيلة لغاية يجنيها السلوك الأخلاقي والإنساني من ورائها. هؤلاء لا يفصلون بين عبادتهم وسلوكهم ويتحرون كل صدق وأمانة في أعمالهم وأخلاقهم إيمانًا منهم بأن العبادة ما شرعت لا للارتقاء بسلوكهم وحسن أخلاقهم. والله نسأل أن يزيد هؤلاء هدى.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ... ﴿٧٦﴾ ﴾، قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ذكرنا أن الشعائر والعبادات من صلوات وزكوات وحج وصيام لم تفرض على سبيل الغاية في حد ذاتها، ولكن الله فرضها لتكون دواء لداءات النفس البشرية التي شاء الله تبارك وتعالى أن يجعل هذه الداءات من جبلة هذه النفس. والسؤال كيف تؤدي هذه الشعائر هذا الدور المنوط بها؟

فالصلاة مثلاً تؤدي دورها في إصلاح أمراض النفس من الكبر والتعالي على الناس بما تتطلبه هذه الفريضة من ذل وانكسار بين يدي الله سبحانه وتعالى. فالصلاة بهذه الكيفية تورث المؤمن الإحساس بالرفعة كلما تواضع لله، وبالقوة كلما ذل وانكسر لله جل في علاه. وهذا التواضع والانكسار لا يستقيم أبدًا مع التعالي على الناس والكبر والخيلاء. ومن أجل ذلك كان الخشوع من أهم ما يشترط لقبول الصلاة.

والصوم وما يتطلب من إمساك صاحبه عن الطعام والشراب وشهوة الفرج يورث القدرة على ضبط النفس ويدرب الصائم على الصلابة وقوة الإرادة أمام نزوات النفس وشهواتها وإذا ما زينت النفس لصاحبها سبيل المعصية في أوقات الصوم سمع من داخله هاتفًا يقول له كيف أفعل الحرام وأنا ممسك عن الحلال؟ فإذا كان الصوم يتطلب منه الصوم عن الحلال، فهو محرم عليه في نهار رمضان، فكيف يقبل على الحرام؟ وهو ممنوع من الحلال. لاشك أن الصوم إذن يصبح بمثابة المصل الواقي من الوقوع في الخطيئة. وهكذا طوال شهر رمضان كل عام يخرج منه الصائم بهذه الفائدة معتادًا على الخيرات ممسكًا عن فعل المنكرات بفضل هذا الصيام الذي حرره من شهوات النفس ونزواتها.

هذا الأثر الإيجابي الذي يعود بالنفع لصالح النفس لا يمكن أن يترتب إلا لمن أبصر وآمن بأن شعيرة الصيام ليست غاية في حد ذاتها، وإنما شرعت لتحرير النفس من شهواتها وأهوائها.

وكذلك الزكاة، وبفضل ما توجبه على صاحبها من اقتطاع جزء من ماله تورثه التحرر من أمراض الكزازة والبخل وإذا تخلص من أمراض النفس هذه فلح وفاز قال تعالى: ﴿ ...وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] ولا يمكن أن يترتب

هذا الأثر العظيم للنفس إلا بالإيمان بأن الزكاة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة لعلاج أمراض الشح والبخل.

الأخلاق هي القبلة التي يتجه إليها دين الإسلام:

يقول تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس].

فإذا كان الفلاح، والفوز بالجنة، ورضوان من الله أكبر هو منتهى ما يبتغيه المؤمن ويصبو إليه ويرجوه من عمله، فإن هذا الفوز والفلاح والرضوان سبيله تزكية النفس : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾[الشمس] ولا يمكن للنفس أن تزكى إلا إذا تحلى صاحبها بمكارم الأخلاق التي تجسد الغاية والهدف الأكبر من هذا الدين.

وقد بيَّن رسول الله ﷺ الغاية من رسالته، والهدف من دعوته. فقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

فكأن كريم الأخلاق وعظيم السلوك هو القبلة التي تتجه إليها الرسالة، والكعبة التي يحج إليها المؤمنون وليس هذا بالقول المرسل، وليس وليد الاستنتاج العقلي فقط،وليس هذا مجرد وجهة نظر شخصية تقوم على الاجتهاد. وإنما هي نظرية تقوم على البينة والحجة الدامغة والبرهان الساطع، وذلك على النحو التالي:

١- قول النبي ﷺ «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وقد سبق شرح ذلك ما يكفي للتأكيد على الربط بين الدين والأخلاق.

٢- عندما سئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن».

والقرآن هو كتاب الله المسطور، وخلق النبي ﷺ هو خير منظور. وكان يمكن للسيدة عائشة أن تقول كان القرآن أعظم ما يسليه، أو أعظم ما يعزيه أو تقول كان القرآن أعظم ما تقر به عيناه، وأعظم ما يتعبد به ربه. ولو قالت هذا لصدقت القول، وأصابت الحقيقة، إلا أنها رضوان الله عليها أجابت إجابة أبانت فيها عن الحكمة من هذا القرآن، وجسدت إجابتها هذه الحكمة في مكارم الأخلاق بقولها «كان خلقه القرآن» الذي لم يتنزل ليشقى

من تنزل عليه ولكن يكون تذكرة لمن يخشى : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[طه].

وبذلك تكون السيدة عائشة قد ربطت في إجابتها بين أعظم خيرين.. خير مسطور، وخير منظور. وكأن الأخلاق هي الغاية التي ينشدها هذا القرآن.

ولذلك كان النبي ﷺ قرآنًا يمشي بين الناس، فترجمة هذه الآيات المكتوبة إلى حركات وسلوكيات ملموسة ومحسوسة يمشي بها في الناس.

فدل هذا السلوك النبوي على وحدة الدين والحياة وأنهما كل لا يتجزأ، ولا ينفصل بعضه عن بعض، ولكنه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا. فلا يصح أن يزاول المؤمن أعمال العبادة والشعائر وهو متردٍ في أخلاقه، كما لا يمكن وصف خلقه بالكمال إلا إذا استمد هذا الخلق جذوره وأصوله من هذا الدين. فهما صنوان متلازمان تلازم الضوء والشمس وتلازم الماء والري، وتلازم الزهور وريحها الفواح.

٣- عندما زكى الله رسوله ﷺ كله قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم].

المقام هنا مقام تزكية شاملة للرسالة والدعوى، كان من الممكن أن يقول تعالى «وإنك لعلى دين عظيم» أو يقول «وإنك لعلى شكل عظيم» ولو قال ذلك لصدق رب العزة وهو أصدق القائلين ولكن تزكية الله لرسوله ﷺ بمكارم الأخلاق كشفت عن الغاية من بعثه فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم].

كما زكاه ربه مرة أخرى بقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

فقد أبانت هذه الآية عن الهدف من هذه الرسالة ألا وهو تزكية المؤمنين وذلك بكريم الخلق وعظيم السلوك، وطهارة القلب والجوارح توطئة للفوز والفلاح: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾.

٤- زكى الله أمة الإسلام فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ...﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران].

لم تكن خير أمة مجاملة لأحد أو محسوبية، ولكنها كانت خير أمة عن جدارة واقتدار وأحقية. وتتمثل هذه الأحقية في ثلاثة أسباب:

- تأمرون بالمعروف.
- وتنهون عن المنكر.
- وتؤمنون بالله.

والأمر بالمعروف يقوم به أعظم الخلق وكذلك النهي عن المنكر. لأن الآمر بالمعروف يفترض فيه أنه يسير على طريق مستقيم، وأنه ذو خلق عظيم، ويريد بخلقه العظيم أن يتعداه إلى غيره فيأمر الغير بالمعروف وينهاه عن المنكر. ومن ثم فإن أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لابد أنها أمة تتحلى بمكارم الأخلاق، وعظيم السلوك. إن أمة تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر، وتتواصى بالخير وتتناهى عن المنكر إنها جديرة بحق بأن تكون خير أمة في الأرض على الإطلاق.

ولا يكفي أن تتخلق الأمة بخلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتكون خير أمم الأرض قاطبة، ولكن يجب أن تستمد هذه الأخلاق جذورها وأصولها من منهج الدين والإيمان.

ومن ثم يمكن القول بأن هذه الآية دلت على أن سر خيرية هذه الأمة على جميع الأمم يكمن في دعوتها إلى مكارم الأخلاق.

٥- يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» في شرح قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾[الفرقان] ما خلاصته أن الإنسان يكون هاجرًا للقرآن ما لم يتأثر بهذا القرآن في سلوكه مهما كان حافظًا له، أو قارئًا، أو متدبرًا.

وهذا يقوم به الدليل أن القرآن ما جاء إلا لتقويم السلوك الإنساني، والتحلي بمكارم الأخلاق.

٦- سمعت من الدكتور عمرو خالد الداعية المشهور بأنه كان ذات مرة مع صديق له مصري. وكان في صحبتهما فتاة أجنبية وكان قد دار حوار بين الدكتور عمرو وصديقه. وقد عمد أن يكون الحوار بلغة الفتاة الأجنبية، ولم يكن بلغتهما العربية.

ولما سألته الفتاة عن سر الخطاب بلغتها هي، وليست بلغة المتحدثين (عمرو خالد وصديقه) فأجاب الدكتور عمرو خالد وقال لها: «إن ديننا يقول إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر» فإذا بالفتاة تقول: «وهل دينكم بلغ هذا المستوى الرفيع من حسن الخلق» ودخلت في الإسلام.

وحدة الدين والحياة (الدين والأخلاق) هي سر قوة هذا الدين:

أكدنا في مواضع كثيرة على أن الدين منهج حياة وإنهما (أي الدين والحياة) وحدة واحدة لا تقبل التجزئة، ولا تنفصل عن بعضها البعض. وأن هذا المنهج يصب في خدمة الأخلاق، بما يؤكد أن هذه الأخلاق هي الغاية والهدف من الرسول والرسالة.

تأمل معي أمة هذا منهج حياتها... أمة ترد جميع حركة حياتها إلى منهجها... أمة تتخلق بكتاب الله وتستن بسنة رسول الله... أمة أفرادها قرآنًا يمشي بين الناس، أمة تربط بين دينها وأخلاقها، أمة تخلص النية والعمل لله، أي عمل دنيويًا كان أو دينيًا، أمة تعتقد في أن كل حركة في حياتها أو سلوك مأجور من الله طالما أنه مقصود به رضاه.

لا شك أن أمة منهجها هكذا لابد أن تكون خير أمم الأرض جميعًا. أمة هذا خلقها لابد أن تكون فوق جميع الأمم بلا منافس. ولا يمكن أن تدانيها أمة أخرى أو تطاولها أو تقف في الصف معها.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولم يكن هذا القول مجرد أمنية أو تصور، بل واقع هذه الأمة فقد كانت هذه الأمة سيدة هذا الكوكب، ولعشرة قرون من الزمان، عندما تمسكت بهذا المنهج. والتاريخ خير شاهد على هذا. انظر على قول هارون الرشيد خليفة المؤمنين وهو يخاطب السحابة في السماء، قائلاً لها شرِّقي أو غرِّبي فأينما سقطت فسوف يأتيني خراجُك. وهذا يدل على أن هذه الأمة قد دان لها الشرق والغرب. لقد استطاعت هذه الأمة – بفضل هذا المنهج – أن تسحب البساط من تحت أقدام اليهود في المدينة. وبفضل هذا المنهج استطاعت إجلاءهم ودك حصونهم.

كما استطاعت هذه الأمة وبفضل اعتقادها بهذا المنهاج أن تزلزل أركان الأرض من تحت أقدام الفرس والرومان لتعلن عن هيمنتها على العالم المعمور، وراحت راية الإسلام ترفرف في سماء هذا العالم.

ولا شك أن أمة كتلك التي أسقطت كل حضارات الأرض لتقوم هي على أنقاضها. لابد أن يكون لها أعداء كثيرون. وما أكثر أعداء هذه الأمة الذين بنى فوق أنقاض حضارتهم مجد هذه الأمة!

هؤلاء الأعداء الذين نكس الإسلام أعلامهم وشرائعهم – وكثير ما هم – لم يستقبلوا هذا النصر بالرضا والحب. ولكنهم قابلوا هذا المجد بالحقد والحسد والضغائن والغل وراحوا يبحثون عن السر في قوة هذا الدين، ومواضع النقاط الحصينة فيه لكي يوجهوا سهامهم إلى هذه المناطق الحصينة.

إن أعداء هذا الدين – وبخاصة أهل الكتاب – يعرفون جيدًا أن هذا الكتاب من عند الله بحق، وأن رسول الله ﷺ حق، وأن هذا القرآن منزل بالحق على الحق وبالحق: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ...(١٠٥)﴾ [الإسراء].

إنهم يعرفون ذلك دون أدنى شك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (١٤٦) ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (١٤٧)﴾[البقرة].

ويعرفون ما فيه من قوة وسلطان وما فيه من خير وصلاح وما فيه من طاقة كافية ودافعة لهذه الأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها، وبالأخلاق التي تنبثق منها، وبالنظام الذي يتفرع عن هذه العقيدة، ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله، ويعلمون بحق أن الأرض لا يمكن أن تسعهم وأهل هذا الدين. إنهم يعرفون أن أهل هذا الكتاب على حق، وأنهم على الباطل، كما يعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها وآلت إليها أوضاع أقوامهم وأخلاقهم لا يمكن لهذا الدين أن يهادنها أو يداهنها بأي حال من الأحوال.

﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ ...(١٠٩)﴾ [البقرة].

ولذلك فهم ينهون وينأون عنه.

إن أهل الكتاب يعرفون جيدًا هذه الحقيقة. فهم يدرسون هذا الدين – جيلاً بعد جيل – دراسة دقيقة عميقة، وينقبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس، ومسار به فيها، ويبحثون بجد كيف يفسدون القوة الدافعة والطاقة الكامنة في هذا الدين؟

وكيف يلقون بالريب والشك في قلوب أهله؟

وكيف يحرِّفون الكلم عن مواضعه؟ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الجاهلية والباطل، وتسترد سلطان الله في الأرض، وتلاحق المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله إلى حركة ثقافية باردة، وبحوث نظرية ميتة، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ من كل مضمون، كيف يفرعون مفاهيمه في أوضاع وتصورات مدمرة، مع إيهام أهله بأن عقيدتهم مصونة ومحترمة! كيف يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى، ومفهومات أخرى، واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة؟

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة متأنية لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة، كما يتصور بعض المخدوعين من هذا الدين، ولكنهم يقومون بهذه الدراسة بحثًا عن مقتل لهذا الدين. إنهم يبحثون عن الحقيقة لتوجيه ضربة لهم إلى مواطن القوة فيه.

إن الإنسان إذا أراد أن يوجه ضربة قاضية لخصمه، فبلا شك يبحث عن أقوى مكان فيه ليوجه إليه سهمه. فمن أراد أن يقتل شخصًا فهل يوجه الرصاص إلى ساقه أو أظافره؟ أم أنه يوجه الرصاص إلى قلبه والمناطق الحساسة فيه؟

هكذا يفعل أعداء هذا الدين والمتربصون به الدوائر.

إن هؤلاء المتربصين بهذا الدين الذين لا ينفكون يخططون لاغتياله، والقضاء عليه يعرفون كما يعرفون أبناءهم سر قوته، ومن ثم وسائل مقاومته، وكيفية إفساده والإجهاز عليه.

إنهم يعرفون أن مصدر الطاقة وموطن القوة فيه تتمثل في وحدة الدين والحياة، وبمعنى آخر الربط بين الدين ومكارم الأخلاق.

لقد اكتشف أعداء هذا الدين أن سر القوة فيه يكمن في أن هذا الدين والحياة، أو إن شئت قل هذا الدين والأخلاق والسلوك لحمة واحدة، وكل لا يتجزأ يشد بعضه بعضًا كالبنيان المرصوص.

وهذا هو سر المكانة العالية التي تحتلها أمة الإسلام على سائر الأمم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴿١١٠﴾ ﴾ كما لا يفسر المنزلة الرفيعة والمقام المحمود لرسول الله ﷺ إلا أن دعوته تدعو إلى مكارم الأخلاق.

وقد سبق القول إن هذه المكانة الشامخة والدرجة العالية لهذه الرسالة والرسول هما اللذان أشعلا نار الحقد والحسد في قلوب الأعداء.

ولكن كيف استطاع أعداء الإسلام اختراقه؟

ذكرنا أن الأعداء اكتشفوا بعد دراسات عميقة ومتأنية لهذا الدين النقاط الحصينة فيه فوجهوا طعناتهم إليها. لقد بحثوا عن مقتل لهذا الدين، فوجدوه في هذا التلاحم الشديد بينه وبين الأخلاق والسلوك، وبمعنى آخر وجدوا موطن قوة هذا الدين في العلاقة الوطيدة بين الدين والحياة فلم يكن من بد إلا أن يصوبوا ضرباتهم إلى هذه النقطة الحصينة التي تمثل مصدر القوة والطاقة فيه. فكانت محاولات الفصل بين الدين والحياة تحت ستار فصل هذا الدين عن السياسة. وحتى يتجنبوا حماسة الدفاع والمقاومة من لدن المسلمين لجأوا إلى طرق خبيثة. وهي تتمثل في الثناء على هذا الدين، حتى يخدروا المشاعر المتحفزة، وينالوا ثقة القارئ ثم يضعوا السم في الكأس. فيقول هذا الدين نعم عظيم، ولكنه يجب أن يتطور في مفاهيمه ونظمه ليجاري الحضارة الإنسانية الحديثة حتى لا يقف في صف المعارضة للتطور الذي هو سنة الحياة، ثم ينتهي به على أن يصبح مجرد عقيدة في القلوب، ويترك الحياة الواقعية تحكمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة الإنسانية الحديثة.

طغيان المادة على بلاد الإسلام:

وبفضل هذا الأسلوب الماكر والخبيث الذي يبتغيه الماكرون لم تعد الحياة محكومة بمنهج الدين. هذا المنهج الذي عزلوه عن الحياة التي صارت تحكم بقيم المادة التي طغت موجتها على حياة المسلمين. وأصبحت هذه الموجة تتبعها موجات أخرى تجد أساسها في تيارات التغريب العاتية بفضل هذا الغزو الغربي المنظم والذي استبانت أخطاره على الأمة الإسلامية في شتى أقطارها، وتجلى أظهر ما يكون في مصر، رغم منزلتها الإسلامية، وتاريخها في الدفاع عن الإسلام.

لقد عمل الأوروبيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها الفتاكة جميع البلاد الإسلامية التي أمدت إليها أيديهم.

وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي إحكامًا شديدًا مستعينين بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتى تم لهم ما أرادوا. أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم، والتعامل معهم، وسهلوا عليهم ذلك وهونوه عليهم، واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادي، وأن يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون، وأن يستأثروا بالثروات الطائلة والأرباح الهائلة. وتمكنوا بعد ذلك من تغيير نظم الحكم والقضاء والتعليم، وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخالصة في أقوى بلاد الإسلام.

وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم وقصصهم وجرائدهم ورواياتهم وخيالاتهم وعبثهم ومجونهم.

وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التي تعج بالإثم، وتطفح بالفجور في أعين البسطاء والأغنياء، وذوي الرأي فيهم، وأهل المكانة والسلطان.

ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار المسلمين لتقذف في نفوس أبنائهم الشك والإلحاد، وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن كل ما يصدر عن الأوروبيين هو المثل الأعلى في هذه الحياة.

واحتوت هذه المدارس على الطبقة العليا وحدها وصارت وقفًا. وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب.

ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس ولاصق بالقلوب طويل العمر قوي الأثر، ولهذا فهو أخطر من الغزو السياسي.

وصارت بعض الدول الإسلامية تتباهى بهذه الحضارة الغربية وتتبرم بصبغتها الإسلامية. فهذه تركيا تعلن أنها دولة غير إسلامية، كما تعلن عن تبعيتها للغرب في كل ما

يصنعون، وحاول هذه المحاولة ملك الأفغان – أمان الله خان – فطاحت تلك المحاولة بعرشه. وقد سادت بمصر وانتشرت هذه التقاليد، وأخذت هذه الفتن تنتقل بسرعة وبقوة من مصر حتى وصلت إلى أقصى المغرب وطوفت بالمشاعر المقدسة في ربوع الحجاز.

ونستطيع أن نقسم[1] البلاد الإسلامية بحسب تأثرها بهذه الحضارة المادية وطغيان مادتها عليها إلى ثلاثة أقسام:

١- بلاد بلغ بها هذا التأثر مبلغًا كبيرًا وصل إلى القلوب والمشاعر، كما غير الأوضاع والمظاهر مثل تركيا ومصر فقد انحسر ظل الفكرة الإسلامية في هذه البلاد عن كل الأوضاع الاجتماعية، وطردت الفكرة الإسلامية لتقبع في المساجد والزوايا.

٢- بلاد تأثرت بهذه الحضارة في أوضاعها ومظاهرها الرسمية، ولكنها لم تتغلب فيها على المشاعر القلبية مثل إيران وبلاد المغرب وشمال إفريقيا.

٣- بلاد لم تتأثر بهذه الحضارة إلا طبقة خاصة من المثقفين والحكام دون العامة والدهماء كسوريا والعراق والحجاز.

مع ذلك فإن الموجة تمتد بسرعة البرق لتصل إلى ما لم تصل إليه بعد من النفوس والطبقات والأوضاع. ولقد استطاع خصوم الإسلام أن يخدعوا عقلاء المسلمين، وأن يضعوا ستارًا كثيفًا أمام أعين الغير منهم بتصوير الإسلام تصويرًا قاصرًا في دروب من العقائد والعبادات والأخلاق إلى جانب مجموعة من الخرافات والطقوس والمظاهر الجوفاء. وقد أعانهم على هذه الخديعة جهل المسلمين بحقيقة دينهم حتى استراح كثير منهم إلى هذا التصور، واطمأنوا إليه ورضوا به، وطال عليهم في ذلك الأمر، حتى صار من العسير أن يفهم أحدهم أن الإسلام نظام اجتماعي كامل يتناول كل شئون الحياة.

نستطيع بعد ذلك أن نقول أن الحضارة الغربية بمبادئها المادية قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معًا في أرض الإسلام نفسها، وفي حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري.

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الإخوان المسلمون ٧٠ عامًا في الدعوة والتربية والجهاد، ط الأولى، ١٩٩٩، ص ص ١٦، ١٧.

المبحث الثامن
ثلاثية المنظومة الإسلامية
عند الإسلاميين وثنائيتها عند الليبراليين

ثلاثية المنظومة عند الإسلاميين:

بعد هذا العرض السابق في الفصول المتقدمة، والذي نخاطب به جميع المسلمين في كافة ربوع الأرض الذين نطقوا بالشهادتين، وكان لهم شرف اللحاق بهذا الركب الذي أنعم الله عليه بأعظم نعم الوجود – نعمة الإيمان بالله – وكفى بها نعمة.

نخاطب المسلمين كافة لنبين لهم حقيقة هذا الدين، والأركان التي يقوم عليها، ومدى ارتباطه بالسلوك والأخلاق، وذلك توطئة للفهم الصحيح لهذا الدين القيم.

والفهم الصحيح لهذا الدين لا يقوم إلا بالإيمان بأن هذا الدين يقوم على مقومات ثلاثة:

- الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر (العقيدة).
- العبادة المحضة والشعائر على النحو الذي سبق الكلام فيه مفصلاً.
- الأخلاق وتشمل سلوك المؤمن ومعاملاته مع الغير على النحو الذي ورد في القرآن والسنة مفصلاً.

فهذا الدين القيم يتألف من هذه المنظومة ثلاثية الأبعاد. والإسلاميون يفهمون دينهم بهذا المعنى – أو يجب أن يفهموه بهذا المعنى – فالإسلاميون في مفهوم هذا البحث ليس كل من أسلم ناطقًا بالشهادتين أو ولد لأب مسلم أو لأب وأم مسلمة، ووجد نفسه يعيش بين المسلمين، أو ثابت في تحقيق شخصيته أنه مسلم.

ولكن الإسلاميين في مفهوم هذا البحث هم كل مسلم فهم دينه بهذا المعنى الذي تقدم، ونظر إليه على أنه هذه المنظومة التي سبق الحديث عنها في أكثر من موضع في هذا البحث، ثم ترجم هذا الفهم إلى واقع يمشي على الأرض في صورة عبادة لله محضة وسلوكيات وأخلاقيات تليق بهذا الدين.

وعندما أقول منظومة فإن أول ما يقفز إلى الذهن أنها أشبه ما تكون بالمسبحة التي تتجمع كلها في عقد ويرتبط جميعها بخيط واحد، بحيث إذا انفرطت حبة من حبات هذا العقد لضعف فيه وانفرطت جميع حبات العقد. فهي (أي منظومة هذا الدين) تتكون من مقومات ثلاثة (عقيدة وعبادة وأخلاق بالمعنى الواسع) ويجب أن تتساند هذه المقومات وتتعاون لإنتاج هذا المنتج الإيماني القيم بحيث إذا تراجع مقوم منها سقطت المجموعة كلها. فهي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ويقوي بعضه ببعض.

فلابد إذن أن يكون القلب الذي هو مركز ومحل العقيدة عامرًا بالإيمان بالله والرسولﷺ واليوم الآخر وأن يصدق عمل الجوارح هذا الإيمان القلبي في مجال العبادة المحضة، والسلوك والأخلاق سواء بسواء. فلا يصح من المؤمن أن يكون قلبه عامرًا بالإيمان دون أن يقيم الدليل على صدق هذا الإيمان بأن يعبد الله كما علمه أن يعبده. كما لا يكفي من المؤمن أن يستقر الإيمان في القلب، وأن يترجم هذا الإيمان إلى عبادة وشعائر دون أن يحقق الهدف المنشود من هذه العقيدة، وتلك العبادة في صورة خلق طيب، ومعاملات طيبة، وسلوك قويم مع الناس. فالذي يدعي الإيمان نقول له «البينة على من ادعى» والبينة هنا التي يقوم بها صحة هذا الادعاء هي العبادة وحسن الخلق. ومن ثم فإن الذي يؤمن بالله ويقيم العبادات والشعائر، ولكنه سيئ الخلق مع الناس. نقول له لقد أسقطت إحدى عناصر المنظومة الثلاثية فسقطت كلها. فهو كالمنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى. وكمن زرع وروى ولم يحصد، لأن الثمرة المرجوة من هذا الإيمان حال بينها وبينك سوء الخلق فحرمت من ثمرة ما زرعت وما رويت. وكنت كمن لم يحصل من قيام الليل إلا السهر والتعب، وكالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا.

وكذلك الذي يتخلق بالخلق الحسن في معاملاته مع الناس ولكنه لا يؤدي حق الله في عبادته، وإقامة شعائره، نقول له «لقد سقط منك ركن من أركان المنظومة الثلاثية، ولا تلومن إلا نفسك عندما تسقط المنظومة جميعها. ويمكنك أن تطلب ثوابك وأجرك على حسن خلقك مع الناس من الناس لا من الله، لأنك لم تبتغ وجه الله في عملك. وما عليك إلا أن تسأل من ابتغيت وجهه بحسن أخلاقك ومعاملاتك إن كانوا يستطيعون أن يعطوك شيئًا.

أين شهداء الوطن من هذه المنظومة؟

من الظواهر الاجتماعية التي تطفو على المشهد السياسي هذه الأيام، وخاصة في أعقاب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ظاهرة الشهداء والمصابين الذين ضحوا بأنفسهم وأوذوا في سبيل الثورة أن تحقق مطالبها وفي سبيل الفساد أن يزول. ثم ينبري الثوار أو القوى السياسية والوطنية – كما أطلقوا على أنفسهم – يطالبون الحكام بالقصاص لدم الشهداء وكفالة حقوقهم وحقوق المصابين.

ومهما قدم الحكام لهؤلاء وهؤلاء من حقوق استقلها (أي اعتبروها قليلة) هؤلاء الثوار واتبعوا سبيل المظاهرات والاحتجاجات من أجل المزيد. وفي كل مرة يستجيب لهم الحكام يقولون هل من مزيد. وكلما صدرت أحكام قضائية ضد قتلة الثوار أعربوا عن سخطهم وعدم رضائهم عن هذه الأحكام عن طريق الحشد وتنظيم المظاهرات والاعتصامات ولا يخفى على أحد ما في ذلك من إخلال بالأمن والنظام العام حتى ولو كانت هذه التظاهرات سلمية، فما بالكم إذا كانت غير سليمة. وهذا هو الغالب في أكثر الأحيان؟!

وهذه الظاهرة ليست بدعًا على ثورة الخامس والعشرين. بل هي موجودة في كل وقت وحين وأنها مرتبطة بالثورات في كل زمان ومكان.

والسؤال الذي يقفز إلى القارئ أين هذه الظاهرة من تلك المنظومة الثلاثية التي تجسد للقارئ الفهم الواعي والصحيح لهذا الدين؟

والإجابة لا تخرج عن هذا الإطار الذي تكلمنا فيه، ووضعنا برنامجه، وحددنا أبعاده ومعالمه.

وبإنزال هذه المعاني المستقرة في هذه المنظومة على النحو الذي سبق تفصيله فإننا نخرج بهذه النتائج:

– لا يكون شهيدًا إلا من ضحى بنفسه في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل حمية وعن الرجل يقاتل شجاعة، وعن الرجل يقاتل ذِكرًا (أي في سبيل أن يخلد ذكره ويكتب شارع أو مدرسة باسمه) فقال ﷺ: فيما معناه لا خير في ذلك جميعًا، إنما الشهيد من قاتل من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

وعلى ذلك فإن الثائر الذي خرج من بيته أو مكان عمله يريد أن يقول كلمة حق في وجه سلطان جائر، ويبتغي بذلك وجه ربه فقط ومات فهو شهيد حي عند الله لا يموت، ولكن الذي كان يريد من ذلك أن يعلو ذكره، أو يكتب شارع باسمه، أو يسجل اسمه بين الأبطال، أو ربما انتصر فيكون له نصيب من السلطان، أو أي شيء آخر فهذا ليس بشهيد. وهذا الحكم ينطبق على كل ثائر ذهب إلى الميدان لمقاومة الفساد لا لله رب العالمين، ولكن من أجل الوطن ومن أجل مصر الحبيبة فهو محروم من تقلد وسام الشهادة، لأنه لم يبتغ وجه ربه بعمله اللهم إلا إذا كانت تضحيته من أجل مصر الحبيبة. ومصر الوطن هي فرع عن إيمانه بربه الذي جعل الدفاع عن الوطن وحب الوطن من حب الله سبحانه وتعالى، هنا يكون شهيدًا حيًا عند الله يرزق ولا يموت – والله أعلم.

والشهيد الذي حقق الشهادة بهذا المعنى، وذهب مغاضبًا للظلم، وفي سبيل هذا الظلم أن ينقشع، وفي سبيل الصلاح والعدل أن يسود، ويعمل كل ذلك لا لشيء إلا ابتغاء وجه الله تعالى، لا يريد غنيمة من أي شيء، ولا يريد أي هدف دنيوي، لأن هجرته إلى الله ورسوله. هذا يستحق أن يتقلد أعظم وسام – ألا وهو وسام الشهادة – هذا وجه وجهه شطر قول الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ...﴿١١١﴾ ﴾.

فالشهداء الذين باعوا أنفسهم لله، واشتروا جنته ورضوانه هم فرحون مستبشرون بهذه الصفة الرابحة ولا يريدون أن يبخسوا الثمن بحقوق لهم تكفل لذويهم من بعدهم في هذه الحياة الدنيا. ولا يأبهون بأحكام القضاء التي تثار وتقتص لهم، لأنهم لا من أجل تحصيل هذه الحقوق، ولا من أجل هذه الأحكام ماتوا وضحوا بأنفسهم، وإنما ولوا وجوههم قبلة ربهم طامعين في كرمه وجنته ورضوانه. وهذا خير بكثير مما يطالب به الثوار، والقوى الوطنية من بعدهم، يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وهذا الحكم ينطبق أيضًا على كل من أصيب وأوذي في سبيل الله.

ولكن ليس معنى ذلك أن يسكت الثوار وقوى الوطن عن المطالبة بحقوق الشهداء والمصابين سواء كانوا شهداء حقًا عند ربهم يرزقون، أو كانوا غير ذلك، وسواء كانوا

مصابين حقًا في سبيل الله، أم كانوا غير ذلك على النحو الذي سبق شرحه، ذلك أن الله هو وحده دون غيره هو الذي يستطيع أن يميز بين الخبيث والطيب، وبين الثمين والغث، وبين الشهيد بحق والمصاب بحق أم لا، وذلك في ضوء نيته وهو سبحانه وتعالى وحده المطلع على القلوب والعليم بذاتها، وهو الذي سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فمن حق هؤلاء الثوار، وقوى الوطن ألا يكفوا عن المطالبة بحقوق هؤلاء وهؤلاء سواء بالقصاص من القتلة والمعتدين بأحكام قضائية مناسبة لبشاعة الجريمة التي ثبتت في حق المتهمين، وسواء بصرف التعويضات النقدية أو المزايا العينية أو إعطائهم الأولوية في الوظائف وفرص العمل.

لا جرم أن يستمر هؤلاء في المطالبة بحقوق هؤلاء وهؤلاء من الأنظمة الحاكمة. ولا يفوتني هنا أن أذكر أن لهؤلاء المطالبين بهذه الحقوق نعم الأجر والثواب عند الله إذا كانوا يطالبون بذلك لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة الله.

ولكني قصدت من ذلك أن أعرض هذا الأمر بكل أمانة وصدق على هؤلاء الثائرين وتلك القوى المدنية وذلك على هدي هذه المنظومة الإيمانية ثلاثية الأبعاد، وأين هم منها وأين الشهداء والمصابين من هذه المنظومة لكي يكونوا على بينة من أمر دينهم ودنياهم ولتكون حركتهم في هذا الإطار الذي رسمت هذه المنظومة أبعاده وملامحه وتوجهاته؟ فهذه لهم بصائر فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها.

والآن أعتقد أنه قد وضح المقصود من القول بعد أن أصبح هؤلاء النشطاء – الذين أوجه لهم نصحي بأن يكونوا على بينة من أمر دينهم ودنياهم وأسأل الله لهم التوفيق والسداد والنصر ما داموا على هدى من الله يهدي به من يشاء من عباده.

لقد أردت أن أبين لكم أن الشهيد بحق أجره على الله وحقه محفوظ عند ربه، وإذا كان الشهيد قد قدم شيئًا بقدراته هو في سبيل الله فإن الله قد أعطاه حقه بقدرته هو سبحانه ذو القوة المتين. ومن أوفى بعهده من الله؟ انظر أخي العزيز إلى الصفقة التي أبرمها الشهيد مع ربه. كم تراها رابحة؟ إنها رابحة رابحة فوق ما رأت العين وسمعت الأذن.

فإذا عرفت ذلك أخي المطالب بحقوق الشهداء والمصابين عرفت أن عليك أن تطالب بهذا النظام وأعني بالنظام هنا الحكام والقضاء، ثم أتركها وشأنها. قدم الشهيد والمصاب أمانة عند الحاكم، كما أن دمه أمانة عند القاضي وكل صاحب أمانة أو صاحب رسالة مسئول عنها أمام ربه ولا تكلف نفسك أكثر من وسعها. :﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...(٢٨٦) ﴾ فيكفي مظاهرة واحدة سلمية بهدف المطالبة بحقوق هؤلاء الذين كان لهم قصب السبق وشرف التضحية من أجل إنجاح الثورة، ومكافحة الظلم والفساد، ثم اترك الحكام والقضاء يقومون بواجب الوفاء بهذه الأمانات عند الله. والله هو الذي يحاسب الجميع. وليس من حقك أن تحاسب أحدًا منهم لأن الله هو الذي يحاسب ويراقب سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم. أما الاعتراض على القرارات الصادرة على النظام بهدف كفالة حقوق الشهداء والمصابين. بدعوى أنها قليلة وتريدون المزيد. وكذلك الاعتراض على الأحكام القضائية بدعوى أنها غير سليمة أو غير كافية. وفي كل مرة تعبرون عن هذا الاعتراض بتظاهرات ومليونيات تدعون أنها سلمية، وكثيرًا ما تنقلب إلى غير سلمية وكثيراً ما يستغل ذلك الغوغاء والدهماء الذين يصطادون في الماء العكر، والذين يتربصون بأمن الوطن. فكل هذا ليس من الإسلام في شيء، وكل هذا يؤاخذ الإسلام عليه من يقوم به. إن أخذه أليم شديد.

أخي المتظاهر، أختي المتظاهرة، اعلموا أن لهذا الكون رب يسيره وفق سننه هو سبحانه ونواميسه. ولا يكون في هذا الكون إلا من أراد سبحانه أن يكون. وما قدر الله له أن يكون فلابد أنه كائن، وما قدر الله له ألا يكون فلن يكون :﴿ ...وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد]؛ المطلوب منك فقط أن تفعل ما هو مطلوب منك وفي حدود وسعك. وعلى ذلك النحو الذي سبق شرحه بالتفصيل :﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...(٢٨٦) ﴾ [البقرة]. وصدق الشيخ محمد متولي الشعراوي عليه رحمة الله إذ قال قبل ثورة ٢٥ يناير بسنوات «الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبني الأمجاد».

ثنائية المنظومة الإسلامية عند الليبراليين:

والمقصود بالليبراليين في مفهوم هذا المبحث أولئك المسلمون الذين يؤمنون بالله والرسول واليوم الآخر والملائكة...إلخ، ويقيمون الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة

وغيره. أما عن ارتباط الدين بالسياسة والأخلاق والشأن العام فهم يفصلون بين الدين وهذه الأشياء ويؤمنون أن هذا الدين يجب أن يقبع في المساجد والمصاحف، وأن هذا الدين يجب أن ينحسر عن الشأن العام والسياسة.

هذا هو المقصود بالليبراليين في مفهوم هذا البحث. فليس هم الملحدون الذين يكفرون بالله ورسوله، ولا هم المنافقون الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. ولكن أعني الذين يؤمنون بالإسلام على أنه منظومة ثنائية الأبعاد، البعد الأول، هو الإيمان بالله والرسول...إلخ، والبعد الثاني هو العبادة لله وإقامة الشعائر على النحو الذي نظمه الشرع. أما البعد الثالث الذي يقوم على الارتباط بين الدين والسياسة والشأن العام فهم لا يؤمنون به ويرون أن الدين لا شأن له بالسياسة بدعوى أن السياسة متطورة ومغيرة والدين لا يواكب هذه المتغيرات، ولذلك فهم ينؤون بالدين عن عالم السياسة لهذا السبب والله أعلم بما في قلوبهم.

وقد سبقت الإشارة إلى أن جميع القوى الاستعمارية التي تستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين عندما درسوا هذا الدين للتعرف على نقاط القوة فيه وجدوها في تلك الصلة الوثيقة بين هذا الدين والسياسة فراحوا يضربونها في مقتل بهدف اغتيال المشروع الإسلامي. وهؤلاء الليبراليون فاتهم – وأعتقد عن جهل وليس عن عمد والله تعالى أعلى وأعلم – أن فهمهم هذا للدين يضرب الدين الإسلامي في مقتل، ويسهلون على هذه القوى الإمبريالية مهمتها.

وهذا الاعتقاد الذي تروج له المدرسة الليبرالية غير صحيح في نظر أصحاب المدرسة الإسلامية، وخاصة أهل السنة والجماعة الذين ينظرون إلى هذا الدين على أنه منظومة ثلاثية الأركان والتي يجب أن ترتبط ببعضها ارتباطًا لا يقبل التجزئة، ويشد بعضها بعضًا كالبنيان المرصوص، بحيث إذا انهدم ركن منها انهارت المنظومة جميعها بالشكل الذي سبق الوقوف عنده تفصيلاً في مواضع كثيرة من هذا البحث.

ولعل خير ما أختم به هذا البحث هو قول الحق: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ... ﴿١٩﴾ ﴾[الأنعام].

والله المستعان وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا

المراجع

١ - القرآن الكريم.

٢- تفسير القرآن:

أ- تفسير في ظلال القرآن للشيخ/ السيد قطب.

ب- تفسير القرآن للشيخ/ محمد متولي الشعراوي.

جـ- تفسير القرآن لابن كثير.

د- تفسير القرآن لوجدي غنيم.

٣- الأحاديث النبوية الشريفة.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	٢٠١٣/٩٨٦٨
I.S.B.N الترقيم الدولي	978-977-10-2881-9



المؤلف

- الدكتوراه في القانون العام من كلية الحقوق جامعة عين شمس
- أستاذ القانون المحاضر بالجامعات والمعاهد العليا
- الداعية الإسلامي

هذا الكتاب

يفصل في قضية من أهم القضايا المثارة على الصعيد السياسي في العالم الإسلامي والعربي قاطبة ألا وهي علاقة الدين بالسياسة.

ذلك أن المشهد السياسي يتنازعه طيفان من الفكر، الفكر الليبرالي الحر والفكر الإسلامي.

وأصحاب الفكر الأول - وهم كُثُر - يذهبون إلى القول بأن الإسلام لا صلة له بالسياسة فقواعد الشريعة الإسلامية التي تشتمل على العقيدة والعبادات تنحسر عن المجال السياسي.

وأصحاب الفكر الإسلامي لا يسلّمون بهذه النظرية ويقولون بالصلة الوطيدة بين الإسلام والسياسة.

نأمل أن يساهم هذا الكتاب في رأب الصدع بين الفريقين.





I.S.B.N. 978-977-10-2881-9
تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث